[سورة سبأ: خمسون وثلاث آيات][1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾﴾

له استحقاق الحمد في الدنيا؛ فإن جميع ما في السموات والأرض خلقُه وملكُه، فهو الواهب لجميع النعم، فهو من قبيل ترتُّب الوصف على الحكم. وكذلك له الحمد في الآخرة؛ لأن نعمها كذلك.

قال في "الأنوار": (وهذا ليس من عطف المقيد على المطلق)[2].

وتقرير ذلك أنه ليس معناه أن الحمدَ ثابتٌ لله غير مقيَّد بزمان دون زمان ليكون عطف الحمد في الآخرة عطف المقيد على المطلق؛ لأن توصيفه تعالى بأن ما في السموات والأرض له يدل على تأخر الحمد عن إيجاد هذه النعم، والحمد في الآخرة مقيد بوقوعه فيها، فهو عطف مقيد على مقيد.

وتقديم الظرف للإشعار بأنه المختصّ بذلك؛ لأن النعم الدنيوية قد تكون بوساطة من يستحقّ الحمد لأجلها، بخلاف نِعَم الآخرة، وحمد الدنيا واجب، وحمد الآخرة لا يوصف بالوجوب، فإنها ليست دار التكليف، لا باعتبار أنها واجبة الوصول، وله الحمد في الآخرة لاستدامة موجبه، وقيل: يحمدونه سرورًا به لا تعبُّدًا، وقيل: ونظيره ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ١٠].

---

(١) ما بين المعقوفين زيادة من (ج، ح)، ليست في الأصل ولا في باقي النسخ.

(٢) أنوار التنزيل (ص٥٦٥).

وهنا لطيفة: ذكر في "المفاتيح" وهو أنه لم يقل: له الشكر؛ فإنه على النعم، ولم يبين كون ما فيهما الشكر، فقال: له الحمد في الأزل لاتصافه بصفات الكمال ونعوت الجلال، ومشكور لا يزال على ما أبدى من الكرم[1].

والوصف بالحكمة لعلَّه باعتبار توقُّف إيجاد النعم عليها، وكذا الخبير. وقيل: بعباده العليم بهم. وقيل: الحكيم الفاعل الذي فعلُه على وفقِ الحكمة، والخبير الذي يعلم عواقبَ الأمور وبواطنها.

﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَاۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾

هو كالبيان للخبير، أي: يحيط علمه بما يدخل في الأرض، وما هي له كِفات من العيون الحاصلة من الأمطار والمعادن والدفائن والأموات.

والذي ﴿ يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾: العيون والأشجار والنبات والفلزات[2]، أو ما يحصل[3] بسبب ما يخرج كالأنعام والدواب والأموات بالإحياء.

والذي ﴿ يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾: الأمطار والثلوج والبرد وأنواع البركات من الأرزاق والملائكة وآثار المقادير؛ لقوله تعالى: ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٢].

﴿ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَاۚ ﴾: الملائكة وأعمال العباد، كقوله تعالى: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ ﴾ [فاطر: ١٠].

---

(١) ينظر: مفاتيح الغيب (٢٤٠/٢٥).

(٢) الفلزُّ: عنصر كيميائي يتميز بالبريق المعدني والقابلية لتوصيل الحرارة والكهرباء. ينظر: المعجم الوسيط (ص٧٣٣).

(٣) في (ح): وما يحصل.

والوصف بكمال الرحمة والمغفرة؛ لأنَّ مقتضى هذه النعم أن لا يقع تقصير في شكرها، فمنع الإنعام عن المقصّر لا يكون إلا بهما.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٣ لِّيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٤ ﴾

وورود كلام الكفرة بعد تقدُّم ما يدلُّ على كمال العلم والقدرة أقبحُ، بل اشتمل ما تقدَّم ذكره على الساعة؛ فإنها من المقادير التي تنزل من السماء.

وهذا نفيٌ للبعث وإتيانِ الساعة، أو استبطاءٌ على وجه السخريَّة. ويدلّ على غاية الإنكار[1] ذكر مجيئها ثانيًا بالتوكيد[2] القسمي، ثم أكد ذلك بالوصف المناسب لذلك.

والمبالغة في عظمة المقسم به للعناية بحال المقسم عليه؛ لأنه كالاستشهاد عليه، فيكون قوة الشهادة بحسب قوته.

ووجه المناسبة أن قيام الساعة من مشاهير الغيوب، فإذا وصف بأنه سبحانه عالم الغيب، وأنه لا يفوت منه شيء، كان فيه إثبات العلم به.

وقرئ: ﴿ عَلَّامِ ٱلۡغَيۡبِ ﴾[3]، و ﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ ﴾ بالرفع[4]، على أنه مبتدأ، خبره: ﴿ لَا يَعۡزُبُ ﴾، أو خبر محذوف.

---

(١) في (ح): (إنكار).

(٢) في (ح): (بالتأكيد).

(٣) في الأصل و(أ): (علّام الغيوب)، والتصويب من (ح). وهي قراءة حمزة والكسائي. ينظر: المبسوط في القراءات العشر (ص٣٠٣).

(٤) قرأ بها: أبو جعفر، ونافع، وابن عامر، ورويس عن يعقوب. ينظر: المبسوط في القراءات العشر (ص٣٠٣).

و﴿مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾: وزن نملة صغيرة، أو ذرة: رأسها، أو ما يقع في الكوة من الشمس، قيل: سبعون منها وزن جناح بعوضة.

والكتاب: اللوح، وفائدة الإشعار بأنه لا يتغير ولا يقع فيه [شيء] (١) بمر الدهور، وهي جملة تؤكد نفي العزوب.

وقرئ: ﴿لَا يَعْزِبُ﴾ بالكسر(٢).

و﴿أَصْغَرُ﴾ و﴿أَكْبَرُ﴾ مرفوعان بالابتداء، ويعضده القراءة بالفتح (٣) على نفي الجنس، وما قيل: إنه لا يجوز عطف المرفوع على ﴿مِثْقَالُ﴾ والمفتوح على ﴿ذَرَّةٍ﴾ بأنه فتح في موضع الجر لامتناع الصرف؛ لأن الاستثناء يمنعه، إلا إذا جعل الضمير للغيب، وجعل المثبت في اللوح خارجًا عنه لظهوره على المطالعين له، فيكون المعنى لا ينفصل، ولعل وجه المنع تقرير كلامه أنه إذا عطف صار المعنى: لا يعزب عن الله ولا أصغر ولا أكبر إلا ثابت في كتاب مبين، ويلزم العزوب إذ المقيد يستلزم المطلق، وكذا إذا عطف على ﴿ذَرَّةٍ﴾. أما إذا جعل الضمير للغيب [٧٣٣/أ]، وجعل المثبت في اللوح خارجًا عن الغيب بالنظر إلى المطالعين، فلا مانع منه؛ لأنه يصير المعنى: لا يعزب عن الغيب شيء ما إلا ما ثبت في اللوح مسطورًا فيه.

ولام ﴿لِّيَجْزِيَ﴾ علة ﴿لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾، وبيان للمقتضي لإتيان الساعة لحصول ثواب المحسن وعقاب المسيء، فإن ذلك مما لا ينكره العقل، بل هو ثابت في الطباع. وقيل: متعلق بـ﴿لَا يَعْزُبُ﴾، أو بما في اللوح؛ لأن المعنى أثبت فيه ﴿لِّيَجْزِيَ﴾.

---

(١) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل، وهو ثابت في (ح).

(٢) قرأ بذلك: الكسائي، وابن وثاب. قال ابن عطية: "وهما لغتان". ينظر: المحرر الوجيز (١٣٤/١٢).

(٣) قرأ بالفتح فيهما: الأعمش، وقتادة، والحسين عن أبي عمر. ينظر: شواذ ابن خالويه (ص ١٢١)، شواذ القراءات للكرماني (ص٣٨٨).

ويقرأ بالتاء[1]، وحينئذ جعل الضمير للساعة باعتبار اليوم، أو لعالم الغيب، بمعنى إتيان أمره نحو: ﴿يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨][2].

والرزق الكريم: الحسن، أو الذي ليس بمنٍّ، وقيل: بليغ الكرامة وهو الجنة.

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ۝٥﴾

أي: سعوا في تكذيب آيات القرآن وإبطالها وتزهيد الناس، أو في ديننا بالتكذيب، ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾: سابقين لي يقربوننا[3]. وقرئ: ﴿مُعَجِّزِينَ﴾[4] أي: مثبِّطين مَن قصَد الإيمانَ بها.

رجزُ العذابِ: سيِّئُه، وقرئ: ﴿أَلِيمٌ﴾ بالرفع[5]، وهو استئناف، وعلى الأول معناه: عذاب من عذاب الله.

﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٦﴾

أي: ويعلم أصحابُ النبي ﷺ؛ لأنَّ السورة كلَّها مكية، أو علماء أهل الكتاب كعبد الله ابن سلام[1] وأصحابه لما قيل لأن هذه الآية مدنية، ومحله الرفع بالاستئناف [2]، وقيل:

---

(١) كذا في الأصل وسائر النسخ، وهو تصحيف، صوابه: (بالياء)، وقد قرأ بالياء التحتية في ﴿لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ طلق عن أشياخه. ينظر: شواذ ابن خالويه (ص ١٢٢)، شواذ القراءات للكرماني (ص٣٨٨).

(٢) هذا من التأويل المذموم وصرف الآية عن ظاهرها.

(٣) كذا في الأصل وبقية النسخ، ولا معنى لها في هذا السياق، ولعل الصواب: (يفوتوننا)، والله أعلم.

(٤) قرأ بها مثقَّلا: الجحدري، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو السماك. ينظر: المحرر الوجيز (١٣٥/١٢)، البحر المحيط (٢٤٩/٧).

(٥) هي قراءة: ابن كثير، وحفص عن عاصم، ويعقوب. ينظر: المبسوط في القراءات العشر (ص٣٠٣).

نصب للعطف على ﴿لِّيَجْزِيَ﴾، أي: ليعلم أولو العلم عند قيام الساعة حَقِّيتَها [٣] عيانًا كما علموه من قبل برهانًا.

و﴿هُوَ﴾ ضمير الفصل، و﴿ٱلْحَقَّ﴾ المفعول الثاني لـ﴿يَرَى﴾، ومن رفع ﴿ٱلْحَقُّ﴾[٤] جعله خبر ﴿هُوَ﴾، والجملة ثاني مفعولي ﴿يَرَى﴾، وهو مرفوع مستأنف للاستشهاد بأولي [العلم][٥] على الجاهلين الذين سعوا في الآيات بالإبطال.

وصراط الحميد هو التوحيد والتدرّع بلباس التقوى، وهو بيان لكونه هو الحق، فإنه هاد إلى هذا الصراط. والوصفان قيل: يفيدان رغبة ورهبة.

فإن قيل: أي مناسبة لهما بما سبق من الكلام؟

قلنا: لما ذكر الساعين في الآيات بالإبطال بيَّن أن تلك الآيات -وهي القرآن- يهدي إلى دين الإسلام الذي أمر به الموصوف بالعزة، فلا يغلب من تمسك به، وينعم عليه بنعم يحمد الله سبحانه بها، ففيه الإشارة إلى قلة المبالاة بالمعاندين، والوعد بالإنعام على الأتباع.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾﴾

---

(١) هي: عبد الله بن سلام بن الحارث الإسرائيلي ثم الأنصارى ﷺ، يكنى أبا يوسف، وهو من ولد يوسف بن يعقوب، كان حليفًا للأنصار، وكان اسمه فى الجاهلية الحصين، وكان أحد أحبار اليهود، فلما أسلم سماه رسول الله ﷺ عبد الله، توفي بالمدينة في خلافة معاوية سنة ثلاث وأربعين. ينظر: الاستيعاب ٣/٩٢١.

(٢) في الأصل و(أ): (بلاستئناف)، وهو تصحيف.

(٣) في (ب): (حقيقتها)، والمثبت من الأصل وباقي النسخ.

(٤) حكى الرفع أبو معاذ، وقرأ به ابن أبي عبلة. ينظر: شواذ ابن خالويه (ص ١٢٢)، شواذ القراءات للكرماني (ص٢٨٨).

(٥) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل، وهو ثابت في (ح).

أي: الذين ينكرون الحشر يتقاولون بينهم على وجه التعجب، وهم قريش، والمدَلُّ عليه محمدٌ ﷺ: يخبركم بأنكم إذا تمزّقت أجسادكم غايةَ التمزُّقِ، وتفرّقت أجزاؤها، أنكم تبعَثون خلقًا جديدًا! وهذا من جملة الأعاجيب! هل السبب أنه يفتري على الله فيما ينسِب إليه، أم به جنون يوهِمُه ذلك؟

واستدُلَّ بجعلهم الجنونَ قسيمَ الافتراء غيرَ معتقدين صدقَه، على أنّ بين الصدق والكذب واسطةً، وهو الخبرُ الذي لا يكون عن بصيرةٍ بالمخبَر عنه.

والجواب: أنَّ الافتراءَ أخصُّ من الكذب، فبيَّن الله سبحانه بطلان الأمرين: الافتراء والجنون؛ لأنه أضرب عما قالوه، وأثبت أنهم في عذاب القبر والضلال الذي هو سببه.

ووصفُه بالبعيد معناه أنه لا خلاصَ لهم عنه، والبُعد صفةُ الضلال في الأصل، ووصف الضلال به مجازٌ للمبالغة.

وتقديم العذاب مبالغة في استحقاقهم له، فنسبة الجنون إليهم هو اللائق، لا الداعي إلى الله الهادي إلى الصراط المستقيم.

والجديد بمعنى فاعل من جدَّ، كقليل من قلَّ، وقيل: بمعنى مُفعل من جدّ النسّاج الثوبَ إذا قطعه.

وإسقاط الهمزة في ﴿أَفْتَرَىٰ﴾ دون (السحر) مع أن القياس الإسقاط؛ لخوف التباس الاستفهام بالخبر لكونهما مفتوحتين.

والممَزَّق جاز أن يكون مصدرًا كالمسَرَّح في بيت الكتاب[1]:

أَلَم تعْلَمْ مُسَرَّحِي القَوافِي فَلَا عِيًّا بِهِنَّ وَلا اجْتِلابا [2]

وأن يكون للمكان؛ لأنَّ أجزاء البدن المتفرَّقة محلُّ التمزق[1]. ويقرأ[2].

---

(١) الكتاب لسيبويه (١/٢٣٣، ٣٣٦).

(٢) البيت لجرير بن عطية الكلبي، وهو في ديوانه (ص٥٧)، ووقع فيه: (ألم تُخبَر بمسرحي القوافي).

وتقديم ﴿إِذَا مُزِّقْتُمْ﴾ للإشعار بالبعد والمبالغة فيه، وعامله محذوف دلَّ عليه ما بعده؛ لأن ما قبله لم يقاربه[٣]، وما بعده مضاف إليه، أو حجب بينه وبينه أنه ممزق. ومعنى عدم المقاربة أنه لم يصلح أن يكون ظرفًا لـ﴿يُنَبِّئُكُمْ﴾؛ لأنه يكون وقوع الإيتاء في وقت التمزيق، وليس المعنى عليه، والعدول عن التصريح بذكر محمد ﷺ وإخباره بالبعث إلى تنكير ﴿رَجُلٍ﴾ للاستهزاء[٤] والاستخفاف.

﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾﴾

القصد بذلك بيان أن من نظر في ذلك ممن له الإنابة علم قدرته سبحانه على هذه الأمور، وأن البعث من هذا القبيل باعتبار الإمكان والقدرة المصحِّحَين، فهو يذكِّر بأمرٍ معايَن دالٍّ على كمال القدرة، والمعنى: أَعَموا فلم ينظروا إلى ما هو محيط بجوانبهم من السماء والأرض، وأنهم كالمحبوسين تحت سلطان الله يجري عليهم قدرته كيف شاء، ولم يتفكّروا [٧٣٣/ب] أهم أشد خلقًا أم تلك المخلوقات، وأنّا إن نشأ خسفنا بهم أو أسقطنا عليهم كسفًا من السماء لتكذيبهم بالآيات البينات بعد ظهورها؟

وقرئ: ﴿يَشَأْ﴾ و﴿يَخْسِفْ﴾ و﴿يُسْقِطْ﴾ بالياء[٥] لقوله: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ﴾.

و﴿كِسَفًا﴾ بالتحريك.

---

(١) في (ح): (التمزيق).

(٢) كذا في الأصل وبقية النسخ، ولم يذكر القراءة المقصودة.

(٣) في (ح): (يقارنه).

(٤) في (ح): (بالاستهزاء)، وهو تصحيف.

(٥) قرأ بالياء فيها: حمزة والكسائي وخلف. ينظر: المبسوط في القراءات العشر (ص٣٠٣).

و﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى النظر والفكر فيهما، أو في خلق السموات والأرض، والقدرة عليه، وما به يعلم مما يدل عليه؛ فإن [1] فيه لدلالةً لكل عبد راجع إلى الله [تعالى] [2]، فإنه يُتوقَّع منه كثرة التأمل في التدبيرات [3] الإلهية، فيعلم دلالته على البعث إذا تفكر في آياته.

﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾

هذا ذكر بعض من أناب إلى الله [تعالى] [4] وهو داود عليه السلام، فله في ذلك لآية، والفضل الذي آتاه الله وإن كان بإطلاقه يتناول كلَّ فضل، لكن حمل على النبوة؛ فإنه خاصٌّ من عنده، وقيل: والزبور [5] والصوت البديع والملك والقوة وتسخير الجبال والطير، وهو مثل: ﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ ﴾ [التوبة: ٢١][6].

وجعل ﴿ يَٰجِبَالُ ﴾ بدلًا منه، يكون من بدل البعض على ما سبق من التفسير، وإن جعل بدلًا من ﴿ ءَاتَيْنَا ﴾ فالتقدير: قلنا أو قولنا، وإذا حمل على الفضل على سائر الأنبياء فينبغي أن يحمل على ما يختصّ به كتأويب الجبال وإلانة الحديد.

و﴿ أَوِّبِى ﴾ معناه: أرجعي -أي: معه- التسبيح على الذنب، أو النَّوحَة، وذلك إما بخلق صوت مثل صوته منها، أو بحملها إياه على التسبيح إذا تأمَّل فيها، أو سيري معه حيث شاء، والتأويب سير النهار.

---

(١) كذا في (د، ن)، وفي الأصل وبقية النسخ: (بأن).

(٢) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل، وهو ثابت في (ح).

(٣) في الأصل: (التدبرات) وهو تصحيف، والتصويب من (ح).

(٤) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل، وهو ثابت في (ح).

(٥) في (ح، د): (الزبور) بدون واو، والمثبت من الأصل وبقية النسخ.

(٦) سقط من الأصل لفظة: ﴿ رَبُّهُم ﴾.

ويقرأ: ﴿أُوبِي﴾ من الأوب[1]، أي: ارجعي في التسبيح كلما رجع فيه.

﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ بالنصب، عطفٌ على محل الجبال، والقراءة بالرفع [2] عطفًا على لفظها تشبيهًا للحركة البنائية بحركة الإعراب يؤيد ذلك، أو معطوف على جبلا [3]، أو مفعول معه لـ﴿أَوِّبِي﴾، فيجوز حينئذ أن يكون عطفًا على ضميره، وإن عطف على ﴿فَضْلًا﴾ فالتقدير: سخَّرنا له الطير.

قيل: كان إذا قرأ الزبور صوَّتت الجبال، وأصغت له الطير.

وتقرير الكلام: ولقد آتينا داود تأويب الجبال والطير، والعدول عنه إلى تلك الصيغة لما فيه من عظمة الله وكبريائه وعظيم سلطانه بالنظر إلى أنه نزّل الجبال والطير منزلة العقلاء الطائعين المذعنين لأوامره.

وأما الحديد فقد ليَّنه الله كالعجين من غير نار من شدَّة قوته، وقيل: حرارة كفِّه، أو سهَّل العمل به.

والسابغات: الدروع الواسعة، وهو أول من صنعها، وكان يعمل كلَّ يوم درعًا، ويسمى الدرع المقاصة؛ لأنها اقتصت[4] على لابسها، وكانت قبل ذلك صفائح، قيل: كانت قيمته أربعة آلاف، وقيل: سبعة [5] آلاف، فينفق على نفسه وعلى عياله ويتصدق على الفقراء،

---

(١) قرأ بذلك: ابن عباس، والحسن، وقتادة، وابن أبي إسحاق، وابن أبي عبلة، وكرداب. ينظر: شواذ ابن خالويه (ص١٢٢)، شواذ القراءات للكرماني (ص٣٨٩).

(٢) قرأ بالرفع: روح وزيد عن يعقوب. ينظر: المبسوط في القراءات العشر (ص٣٠٤).

(٣) كذا في الأصل و(أ، ب، ج، ن)، وفي (ح، د): (جبال)، والظاهر أن كلها تصحيف، والصواب: (على فضلًا).

(٤) العبارة مهملة في جميع النسخ، وكأن رسمها ما كتب أعلاه، إلا في (ح) فقد وردت: (المقابضة لأنها أقبضت). وفي المخصص لابن سيده (٣٩/٥): "درع قضاء: خشنة المس، من القضض وهو الحصى الصغار؛ لأنها تَقَضُّ على المسّ، وقيل لها: قضاء؛ لأنها تقض على لابسها".

(٥) في (ح): (ستة).

[قيل: يتصدق بأربعة آلاف] [1]، قيل: كان يخرج وهو ملك بني إسرائيل متنكرًا، فيسأل الناس عن نفسه، فيثنون عليه، فقيض الله ملكًا في صورة إنسان، فسأله على عادته، فقال: نِعمَ الرجل لولا عادة فيه، فرفع داود [رأسه] [2] فسأله، قال: لولا أنه يطعم عياله من بيت المال، فعلمه صنعة الدروع.

ومعنى التقدير في السّرد الذي هو نسج الدرع [3]: أن لا تكون المسامير غلاظًا فتقصم الحلَق، ولا دقاقًا فتعلق، والغرض أن تناسب المسامير الحلَق.

ورُدَّ ذلك بأن دروعه لم تكن مسمرة، ويدل عليه ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾، ولو كانت بمسامير لما كانت معجزة. وقيل: قد بقي منها شيء ولا مسامير فيها.

و﴿أَنِ﴾ هي المفسِّرة، وقيل: بمعنى الخبر، أي: بأن يعمل إخبار الله له ذلك؛ لما فيه من وقاية الروح التي هي من أمره.

وضمير ﴿ٱعْمَلُوا۟﴾ لداود وأهله، والعمل الصالح قيل: الشكر، وقيل: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر.

وفائدة كونه سبحانه بصيرًا أن يجازي على تلك الأعمال.

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾﴾

أي: وسخرنا لسليمان الريح، وقيل: عطف على ﴿أَلَنَّا﴾ أي: وألنا له الريح، قيل: لم يسخر له إلا واحدة؛ ولهذا لم يقرأ: ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾ إلا شاذًا[1]، ويقرأ بالرفع[2]، والتقدير: الريحُ الريحُ مسخرةٌ، وجريانها بالغداة مسيرة شهر، وبالعشي كذلك، ويقرآن بالتوحيد.

---

(١) ما بين معقوفين ساقط من الأصل، وهو ثابت في (ح).

(٢) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل، وهو ثابت في (ح).

(٣) في (ح): (الدروع).

عن الحسن: (أنه كان يغدو فيقيل بإصطخر، ورواحه بكابل) [٣]. ووُجِد مِن كتابةِ أصحابه بناحيةِ دِجلة: (غَدَونا من إِصطخر فقِلناه، ونحن رائحون منه فبائتون بالشام إن شاء الله)[٤].

وقيل: إنما سخرها الله له لما عقر الخيل غضبًا لله، وقيل: قال بمرو، وقد غدا من العراق، وصلى العصر ببلخ، ثم سار منها إلى بلاد الترك، ومنها إلى بلاد الصين، ثم عطف يمنة عن مطلع الشمس على ساحل البحر حتى أتى قندهار من الهند، ومنها إلى مكران وكرمان، إلى فارس، والمسيرة شهر، ثم أتى الشام وكان مستقره تدمر مما بناه الجن.

والقِطر: النحاسُ الذائب، أذابها الله له، كانت تسيل كالماء من غير علاج، وكانت بأرض اليمن، وما في أيدي [الناس] [٥] من ذلك [٧٣٤/أ]، وقيل: هو الصفر أو الحديد أو الرصاص، قيل: كان يسيل[٦] في الشهر ثلاثة.

﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ﴾ تقديره: وسخرنا له من الجن من يعمل، أو مستأنف.

وإذن الرب: أمره.

﴿وَمَن يَزِغْ﴾ عن أمرنا إياه بطاعة سليمان.

---

(١) قرأ بذلك: أبو حيوة وغيره. ينظر: شواذ ابن خالويه (ص ١٢٢)، شواذ القراءات للكرماني (ص٣٨٩).

(٢) قرأ بالرفع: عاصم في رواية أبي بكر، وقرأ الباقون بالنصب. ينظر: المبسوط في القراءات العشر (ص٣٦١).

(٣) رواه عبد الرزاق في التفسير (١٢٧/٢)، والطبري في جامع البيان (٢٢٨/١٩).

(٤) رواه الطبري في جامع البيان (٢٢٧/١٩)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٢٨٥٦/٩).

(٥) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل، وهو ثابت في (ج).

(٦) في الأصل: (يسير)، وهو تصحيف، والتصويب من (ح).

و﴿ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾: عذاب الآخرة، وقيل: كان معه ملك يضرب مَن عصى منهم بسوط من النار من حيث لا يراه فيحرقه.

ويقرأ: ﴿ يُزِغْ ﴾ من أزاغ[1].

ويُعلَم أنه لم يسخر له كل الجن.

وذكر إذن الرب في الأول دون الثاني أن لفظ الرب ينبئ عن الرحمة، ولما كانت الإشارة إلى حفظ سليمان ذكر الرب.

﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾

المحاريب: الأبنية الرفيعة؛ ولهذا قال: ﴿ إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ ﴾ [ص: ٢١]، وقيل: المجالس الشريفة المصونة من الابتذال، سميت بها لأنها يحامى عليها ويذَبّ عنها، أو المساجد.

والتماثيل: صور الملائكة والأنبياء، تُعمَل في المساجد من نُحاس وصفر وزجاج ليَعبُدَ الناسُ إذا رأوها مثلَ عبادَتهم، ولم تكن حينئذ محرمةً، ومن قال بحرمتها قال: هي صور الأشجار وغيرها؛ لأن التمثال: كل ما صور على صورة غيره ولو بغير الحيوان أو محذوفة الرؤوس[2].

وعلى الأول روي أنهم عملوا [3] أسدين أسفل الكرسي، إذا صعد بسطا له ذراعيهما، ونسرين فوقه، إذا قعد أظلاه بأجنحتهما[4].

---

(١) قرأ بذلك بعضهم. ينظر: شواذ ابن خالويه (ص١٢٢).

(٢) في (ح): (الرأس).

(٣) في الأصل: اعملوا، وهو تصحيف، والتصويب من (ح).

(٤) ينظر: الكشاف (٥٨٢/٣).

قيل: أراد أفريدون[1] أو بختنصر[2] أن يصعد الكرسي بعده ولم يعلم كيف يصعد، فلما دنا منه ضربه الأسد على ساقه فكسرها، فلم يدن منه أحد بعده.

والجفان: الصحاف، كالحياض جمع جابية [3] وهي الحوض؛ لأن الماء يجبى فيها أي: يجمع، قال:

تروح على آل المحلَّق جَفنة كجابيةِ الشيخ العراقي تَفْهَق [4]

وأصله: الجوابي، فحذفت الياء تخفيفًا كالبادي، اكتفي عنها بالكسرة. قيل: كان يأكل من كل جفنة ألف رجل، وكان له اثنا عشر ألف خبَّاز، واثنا عشر ألفَ طبّاخ؛ لكثرة القوم.

والراسيات: الثابتات على الأثافي، لا ينزل عنها لكبرها، وقيل: أثافيها منها.

و﴿ٱعۡمَلُوٓاْ﴾ تقديره: وقلنا لهم وأمرناهم: اشكروا يا آل داود شكرًا، فهو نصب على المصدر؛ لأن ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ﴾ يتضمن الشكر؛ لأنه عمل للمنعِم. وقيل: مفعولٌ له، أو على الحال، أي: اعبدوه شاكرين، أو مفعول ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ﴾. قيل: المراد الطاعات، فيتناول التقوى والصلاةَ والصومَ، كما قيل بكل من الأوَّلين [5] والآخرين.

---

(١) هو: أفريدون بن أثغيان، وهو من ولد جم شيد ، وكان ملكه خمسمائة سنة. ينظر: الكامل في التاريخ ٧٧/١.

(٢) بختنصر، أو نبوخذ نصر الكلدي (٦٠٥-٥٦٣ ق.م)، أشهر ملوك الدولة البابلية الحديثة ، قاد الجيوش البابلية في معارك حاسمة على منطقة بلاد الشام ، ودمر عدة ممالك منها مملكة يهوذا، وسبى الكثير من أهل بلاد الشام إلى بابل، وقام ببناء الجنان المعلقة التي عدت من عجائب الدنيا. ينظر: الكامل في التاريخ ٢٢٨/١، الموسوعة الحرة: ويكيبيديا (بختنصر).

(٣) كذا في الأصل وسائر النسخ، ولعله تصحيف صوابه: (﴿كَٱلۡجَوَابِ﴾ جمع جابية).

(٤) البيت للأعشى. ينظر: تفسير الطبري (٢٣٢/١٩)، الكشاف (٥٨٢/٣).

(٥) في الأصل: (الأول)، وهو تصحيف، والتصويب من (ح).

والشكور: المؤمن الموحد، المتوفر على أداء الشكر، الباذل وسعَه فيه، قد شغل به قلبه ولسانه وجوارحَه، وعلى اعتقاده ذلك، قيل: من يشكر على أحواله كلها، قاله ابن عباس[1]، أو الشكر على الشكر، أو من يرى عجزه عن الشكر، وعن داود أنه جزأ الساعات، فلا تأتي ساعة إلا وبعض أهله يصلي فيه[2].

وفيه دليل على تخفيف الله سبحانه عن العباد؛ لأنه يشعر بأنه إذا لم يقدروا [3] على كمال الشكر فلا حرج عليهم؛ لأن كل شكر يستدعي شكرًا لأنه نعمة.

﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾ ﴾

أي: على سليمان عليه السلام.

والأرضة دويبة يقال لها: السرفة، وأضيفت إلى الأرض لأنها من فعلها؛ لأنه يظهر بأكلها الخشبة صورة ترابية هي الأرض، وهي [4] من باب المطاوعة يقال: أرضت الأرضة فأرضت الأرض، أي: صارت أرضًا، فمعنى أرضت: أكلت، ويقرأ بفتح الراء [5] من أرضت الخشبة أرَضًا، ومثله -أعني: من باب المطاوعة- أكلت القوادح الأسنان فأكلت أكلًا، والقوادح: الدود.

(١) ذكره الزمخشري في الكشاف (٣/٥٨٣).

(٢) رواه الثعلبي في الكشف والبيان (٨/٧٩) عن ثابت به.

(٣) في الأصل: (يقدر)، وهو تصحيف، والتصويب من (ح).

(٤) في الأصل: (وبقى)، وهو تصحيف، والتصويب من (ح).

(٥) رواها أبو شبيل عن أبيه عن الواقدي، وذكرها الحلواني عن العباس بن الفضل وغيره. ينظر: شواذ ابن خالويه (ص١٢٢)، شواذ القراءات للكرماني (ص٣٨٩).

والمنسأة العصا؛ لأنها ينسأ بها أي: يطرد ويؤخر، يقال: نسأت البعير إذا طردته. ويقرأ بفتح الميم وتخفيف الهمزة[1].

ومعنى ﴿تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ﴾: أنه ظهر، و﴿أَن﴾ مع الصلة بدل من ﴿ٱلْجِنُّ﴾ نحو: تبين زيد جهله، أي: ظهر أن الجن لو كانوا عالمين بالغيب الذي هو موته ما لبثوا في العذاب، وقيل: تبينت الشيءَ، أي: علمته، وذلك حين خر سليمان، أي: سقط، وقيل: لو علم الجن كلهم علمًا بيِّنًا بعد التباس الأمر على ضعفتهم وتوهم أن أكابرهم صادقون في ادعاء علم الغيب، أو علم المدعون علم الغيب أنهم لا يعلمونه وإن كانوا عالمين قبل ذلك بحالهم، والمراد التهكم بهم، تقول لمن ظهر بطلان حجته: هل تبينت أنك مبطل؟

ويقرأ ببناء المفعول[2]، و﴿تَبَيَّنَتِ ٱلْإِنسُ﴾[3]، والضمير في ﴿كَانُوا۟﴾ للجن، أي: علمت الإنس أن لو كان الجن يصدقون فيما توهمونهم [4] من علمهم الغيب ما لبثوا، ويقرأ: ﴿تَبَيَّنَتِ ٱلْإِنسُ ٱلْجِنَّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ﴾[5].

رُوِي أن سليمان عليه السلام كان كلما صلى ببيت المقدس نبت بين يديه نبات، فيسأل عن اسمه ومنفعته، فيقلع ويغرس في موضع، فصلى يومًا فنبت نبات فسأله عن اسمه، فقال:

---

(١) قرأ الأعمش بفتح الميم، وعن طلحة وعيسى البصرة بالمد والكسر لفظًا. ينظر: شواذ القراءات للكرماني (ص٣٨٩).

(٢) أي: ﴿تُبُيِّنَت﴾، قرأ بها يعقوب. ينظر: المبسوط في القراءات العشر (ص ٣٦١). وفي النشر (٢/٣٥٠): برواية رويس.

(٣) قرأ بها: ابن عباس وعلي بن الحسين والضحاك. ينظر: شواذ القراءات للكرماني (ص٣٨٩).

(٤) كذا في الأصل وسائر النسخ، ولعله تصحيف، صوابه: (يوهمونهم).

(٥) قرأ بها: ابن مسعود. ينظر: شواذ القراءات للكرماني (ص ٣٨٩)، وهي عنده بلفظ: ﴿تَبَيَّنَتِ ٱلْإِنسُ أَنَّ ٱلْجِنَّ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ﴾.

خروب، قال: لم أنت؟ قال: لخراب هذا المسجد، قال سليمان: ما كان الله ليخربه وأنا حي[1].

وكان عليه السلام يخلو السنة والشهر في بيت المقدس، يدخل فيه طعامه وشرابه، ثم دخل مرة وكان قد ذكر لملك الموت إذا أُمرت فأعلمني به، فأعلمه، فأمر الشياطين [2] ببناء صرح عليه من قوارير من غير باب، وقام يصلي [٧٣٤/ب] واتكأ على عصاه، فمات متكئًا.

وقيل: قال لأهله حينئذ: لا تخبروا الجن بموتي، ولا تبكوا علي حتى يفرغوا من بناء بيت المقدس. وقيل: تحنط وتكفن، ثم جلس على كرسيه، وجمع كفيه على طرف عصاه، ثم وضعهما تحت ذقنه فمات.

وبقي كذلك إلى أن أكلت الأرضة أسفل عصاه، فخر ساقطًا، قيل: إنما قدرت على تلك الأعمال الشاقة؛ لأن الله تعالى زاد في أجسامهم وقواهم، وغيّر خلقهم عن خلق الذين لا يُرون، وكانوا كالأسرى، وماتوا بعد موته، وكان ذلك معجزة سليمان.

وقيل: كانت الشياطين تجتمع حول محرابه أينما صلى، فلم ينظر إليه أحد منهم في صلاته إلا احترق، فمر شيطان فلم يسمع صوته، فرجع فنظر فإذا سليمان قد خرَّ ميتًا، وقد رأوا أكل الأرضة من عصاه، فإذا هو قد مات مِن سنةٍ.

وفي الجملة في ذلك بطلان دعوى من ادَّعى أن الجنَّ يعلمون الغيبَ منهم ومن غَيرهم، وكان عمرُ سليمان ثلاثًا وخمسين سنة، ملَك أربعين سنةً منها، وكان داودُ أسَّسَ بناء بيت المقدس موضع فسطاس[3] موسى، ومات قبل إتمامه، وأوصى إلى سليمان أن يتمَّه، وكان قد بقي من عمَله سنة، فعمي على الجنّ حتى تمَّموه، وكان في بنائه ستًا وثلاثين سنة من زمان ملكه، وفيه دليل على أن المراد كفرة الجن؛ لأن المؤمن في عهد النبيِّ لا يكون في الإهانة.

---

(١) رواه الطبري في تفسيره (٢٤١/١٩) عن ابن عباس وعن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب النبي ﷺ.

(٢) في الأصل و(أ): (الشيطان)، وفي (ح): (الشياطين)، وهو الأنسب للسياق.

(٣) كذا في الأصل وسائر النسخ، ولعله تصحيف صوابه: (فسطاط). ينظر: الكشاف (٥٨٤/٣).

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾

قرئ مصروفًا على أنه اسم أبي القبيلة أو الحي، وممنوعًا على أنه اسم القبيلة، وقرئ بقلب همزته ألفًا أو أخرج بَيْنَ بَيْنَ فلم ينقله الراوي كما وجب [(١)]، وهم قبائل ينسبون إلى سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان[(٢)].

عن الحسن: أنه اسم أرض[(٣)]. قيل: باليمن، يقال لها: مأرب، بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاث ليال. وروي أنه سُئل النبي ﷺ: هل هو جبل أو أرض أو امرأة؟ فقال: ((**كان رجلًا من العرب نشأ منه عشرة أولاد، تيمن ستة منهم، وتشاءم أربعة** -أراد سكون اليمن والشام- ، **فالمتيمنون: كندة[(٤)] والأزد[(٥)] والأشعريون[(٦)] ومذحج[(١)] وأنمار[(٢)] الذين هم بجيلة [(٣)] وخثعم[(٤)]، وخثعم[(٤)]، والمتَشيِّمون: عاملة[(٥)] وجذام[(٦)] ولخم[(٧)] وغسّان[(٨)]**))[(٩)].

---

(١) قرأ أبو عمرو وابن كثير في قراءة البزي ممنوعًا من الصرف، وقرأ ابن كثير في رواية القواس وابنِ فليح بغير همز مثل (سَنَا)، وقرأه الباقون مصروفًا. ينظر: المبسوط في القراءات العشر (ص٣٣١-٣٣٢).

(٢) سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، ويقال له: عامر، من ولده: كهلان، وحمير، وفيهما العدد والجمهرة، وزيدان، ويشجب، ورهم، وشداد، وربيعة، وغيرهم. ينظر: جمهرة أنساب العرب ٣٢٩/٢.

(٣) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (٢٨٦٥/٩).

(٤) ينسبون لكندة وهو ثور بن عُفَير بن عدي بن الحارث بن مرة بن أُدد بن زيد بن يشجب بن عَريب بن كهلان بن سبأ. ينظر: نسب معد واليمن الكبير ١٣٦/١.

(٥) هو ابن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد ، منهم غسان، وهو مازن بن الأزد، وإنما غسان ماء نُسبوا إليه، من قبائلهم: بنو جَفْنة رهط الملوك من غسان، ومنهم : الأنصار الأوس والخَزْرج. ينظر: نسب عدنان وقحطان (ص٢١).

(٦) الأشعريون: بطن من كهلان من القحطانية، وهم بنو الأشعر بن أدد بن زيد يش جب بن عريب ابن زيد بن كهلان. ينظر: نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب (ص١٦٨).

=

(١) مَذْحِج على وزن مسجد: واسمه مالك قبيلة من كهلان، وهو ابن أدد، وقيل: مذحج بن يخامر بن مالك بن أدد بن زيد بن كهلان. ينظر: نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب (ص٤١٧).

(٢) بنو أنمار: حي من كهلان من القحطانية، وهم بنو أنمار بن أراش بن عمرو بن غوث بن نبيت بن مالك بن زيد بن كهلان. ينظر: نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب (ص٨٧).

(٣) بنو بجيلة بن أنمار بن إراش، وبجيلة اسم أُمهم وعرفوا بها، وكانت بلادهم مع إخوتهم خثعم في سروات اليمن والحجاز إلى تَبالة، ومنهم: جرير بن عبد الله البجلي الصحابي ﷺ. ينظر: قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان (ص١٠٣).

(٤) بنو خثعم: بطن من أنمار من أراش من القحطانية ، وبلاد خثعم مع أخوتهم بجيلة بسروات اليمن والحجاز إلى تبالة. ينظر: نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب (ص٢٤٣).

(٥) بنو عاملة: بطن من كهلان من القحطانية، و اسم عاملة: الحارث بن عفيرة بن عدي بن الحارث ابن مرة بن أدد بن زيد بن يشجب بن زيد بن كهلان . ينظر: نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب (ص٣٣٣).

(٦) بنو جُذام: بضم الجيم وبالذال المعجمة، بطن من كهلان من القحطانية، وهم بنو جذام بن عدي ابن الحارث بن مرة بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان . ينظر: نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب (ص٢٠٥).

(٧) بنو لخم: قبيلة من كهلان، ولخم هذا أخو جذام عم كندة، وقد كان للخميين ملك بالحيرة من العراق، وكان لبقاياهم ملك بـإشبيلية من الأندلس، وهي دولة بني عباد . ينظر: نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب (ص٤١١).

(٨) بنو غسان : حي من الأزد من القحطانية، وهم : بنو جفنة ، والحارث وهو محرق ، وثعلبة وهو العنقاء، وحارثة ، ومالك ، وكعب ، وخارجة ، وعوف بن عمرو بن مزيقيا، سموا غسانًا لماء اسمه غسان بين زبيد وربع، شربوا منه. ينظر: نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب (ص٣٨٨).

(٩) رواه أبو داود (٣٩٨٨)، والترمذي (٣٢٢٢)، من حديث فروة بن مسيك ﷺ، وقال الترمذي: "هذا حديث حسن غريب".

و﴿مَسَٰكِنِهِمْ﴾ قرئ بالإفراد، وبالكسر أيضًا [1]؛ حملًا على ما شذّ من نحو المسجد والمشرق، والجمع فيه طلب الموافقة؛ لأنَّ لكلٍّ مسكنًا. وقيل: مَن فتح جعله مصدرًا كالسُّكنى، ووُحِّد كما يُوَحَّد المصادر.

والآيةُ: الدلالةُ الظاهرة والحجة الواضحة الدالة على وحدانية الله تعالى وقدرته.

و﴿جَنَّتَانِ﴾ بدل من ﴿ءَايَةٌۖ﴾ أو خبر محذوف، أي: الآية جنتان، وفيه معنى المدح حيث يقرأ بالنصب[2]، وهو متعين للمدح.

ووجه كونهما آية أن قصتهم الدالة على أن الاعتراض عن شكر النعمة جعله الله سبب خراب الجنتين وإبدالهما بالخمط والأثل، ولا حاجة إلى الاعتذار عن جعل الله خرابهما آية بإنهما[3] كانتا جماعة من البساتين؛ حيث أورد أنه كم قرية خربت ببساتين أعظم منها ولم تُجعَل آية؛ لأن الكلام مع العرب وهم كانوا يعرفون ذلك.

و﴿كُلُواْ﴾ على تقدير القول، والقائل: إما أنبياؤهم [4]، أو لسان الحال، أو هم أحقاء أن يقال لهم، ولعل تعقيبه بأنها ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ للإشعار بأن مثل هذه النعمة ينبغي أن تُشكَر، وأنَّ الله شَكور لمن شكَره، فيكون ذكرُ إعراضِهم بعدَه أقبحَ.

قيل: كان من طيبها أنه لم يكن فيها عقرب، ولا حية، ولا بعوض، ولا ذباب، ولا قمل، ومن رآها ومعه شيء من القمل والبعوض مات، وكان الإنسانُ يُمسِك المكتَلَ [1] على على رأسه، فيخرج وقد امتلأت من أنواع الفاكهة.

---

(١) قرأ حمزة وحفص عن عاصم بالإفراد وفتح الكاف، وقرأ الكسائي وخلف بالإفراد وكسر الكاف، وقرأ الباقون بالجمع. ينظر: المبسوط في القراءات العشر (ص٣٦١-٣٦٢).

(٢) قال القرطبي في الجامع لأحكام القرآن (١٧/٢٩٠): "ويجوز أن تنصب (آية) على أنها خبر كان ، ويجوز أن تنصب الجنتين على الخبر أيضا في غير القرآن".

(٣) في الأصل: (فإنهما)، والمثبت من (ح) وهو الأنسب.

(٤) في الأصل و(أ): (اتيناهم)، وهو تصحيف، والتصويب من (ح).

وقرئ جميعُها بالنصب على المدح[٢].

﴿ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ ﴾

قيل: بعث إليهم ثلاثة عشر نبيًا، فذكَّروهم نِعَمَ الله، وحذَّروهم عِقابَه، فكذَّبوهم وجحدوا نعَم الله عليهم.

﴿سَيْلَ ٱلْعَرِمِ﴾ أي: سيل الأمر العرم، من عرم الرجل: إذا صعُب خلُقُه وشَرُس، أو المطَر الشديد، أو الجُرذ وإضافةُ السِّكر إليه[٣] لأنه نقَّب عليهم سِكْرًا[٤]؛ ضربت لهم بلقيس بسدٍّ ما بين الجبَلين بالصخر والقار، فجفت به ماء العيون والأمطار، وتركت فيها نقبًا على مقادير حاجاتهم في السقي، فسلط الله عليهم الجرذ الأعمى، فنقبه في أسفله فغرَّقهم.

وقيل: جمع عَرِمَة: الحجارة المركومة، والمراد المسَنَّاة[٥] التي عقدوها سِكْرًا.

وقيل: هو اسم الوادي.

وكانوا[٦] بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام.

وإذا جعل العرم صفة السيل من العرام وهو الشدَّة، فيكون من باب صلاة الأُولى.

وتسمية المبدل بهما ﴿جَنَّتَيْنِ﴾ للمشاكلةِ، مثل: ﴿جَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ﴾ [يونس: ٢٧]، فلا منافاة بين التسميةِ بالجنة وذكرِ الأثل.

---

(١) المِكتل: زنبيل يعمل من الخوص. ينظر: المعجم الوسيط (ص٨١١).

(٢) أي: (بلدةً طيبةً وربًّا غفورًا)، قرأ بذلك حميد بن وزير عن يعقوب. ينظر: شواذ ابن خالويه (ص١٢٢)، شواذ القراءات للكرماني (ص٣٩٠).

(٣) كذا في الأصل وسائر النسخ، والظاهر أنه تصحيف، صوابه: (وإضافةُ السَّيل إليه).

(٤) السِّكر بكسر السين: ما يُسدُّ به النهر. ينظر: المعجم الوسيط (ص٤٦٤).

(٥) المسَنَّاة: حائط يبنى في وجه الماء، ويُسمى السدّ. ينظر: المصباح المنير (٢٩٢/١).

(٦) في الأصل: (وكان)، والمثبت من (د، ن)، وهو أنسب للسياق.

والأُكُل: الثمر، والخمط: المر البشع، وهو كل نبت أخذ شيئًا من المرارة، وقيل: شجر الأراك، وقيل: ما لا [٧٣٥/أ] شوك له[١]. وقرئ بالضم والسكون، والتنوين والإضافة[٢]، على تقدير: لكل[٣] أكل خمطٍ، حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، ومن أضاف فلأنَّ أُكُل الخَمطِ في معنى البَرير[٤]، كأنه قيل: ذواتى بَرير.

والأثل شبه الطرفاء، لكنه أعظم منه وأجود شجرًا.

والأثل والسِّدر معطوفان على ﴿أُكُلٍ﴾، ويقرأ: ﴿أَثْلًا﴾ و﴿شَيْئًا﴾[٥] عطفًا على جنتين. ووصف السدر بالقليل لأنَّ ثمرتَه طيّبة.

ثم بين سبحانه أن هذا الجزاء بسبب كفرانهم النِّعمَ كما سبق، والاستفهام للنفي، أي: لا يجازى بمثل ما جزيناهم إلا البليغُ في الكفران أو الكفر، وقرئ بالنون ونصب الكفور [٦]، ويقرأ: ﴿يُجَازِي﴾[٧] والفاعل الله سبحانه، ويستعمل بمعنى المعاقبة والإثابة، وحيث كان المراد

---

(١) في (ح): (فيه).

(٢) قرأ أبو عمرو ويعقوب: (ذواتَي أُكلِ خمطٍ) مضاف غير منوّن، وقرأ الباقون: (أكلٍ خمطٍ)، وابن كثير ونافع: (أكْل) بإسكان الكاف. ينظر: المبسوط في القراءات العشر (ص٣٦٢).

(٣) كذا في الأصل وسائر النسخ، ولعله تصحيف صوابه: (أكل)، ففي الكشاف للزمخشري (٥٨٦/٣) قال: "وجه من نوَّن أن أصلَه : ذواتَي أُكُلِ أُكلِ خمطٍ ، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه...ومن أضاف فلأن أكل الخمط في معنى البرير، كأنه قيل: ذواتي برير".

(٤) البرير: ثمر الأراك. ينظر: المعجم الوسيط (ص٦٩).

(٥) حكاه الفضل بن إبراهيم. ينظر: شواذ ابن خالويه (ص١٢٢).

(٦) وبها قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم ويعقوب وخلف، والكسائي وحده يدغم اللام في النون. وقرأ أبو جعفر ونافع وابن كثير وابن عامر وأبو عمرو وأبو بكر عن عاصم: (وهل يُجَازَى إلَّا الكفورُ). ينظر: المبسوط في القراءات العشر (ص٣٦٢).

(٧) ينظر: الكشاف (٥٨٦/٣).

المراد هذا الجزاء المعيَّن لم يشكِل بأن الجزاء لا يختصّ بالكفور، فكيف قال: ﴿وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ المفيد الحصرَ[1]؟!

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾﴾

أي: بين سبأ وبين قرى الشام والأردنِّ وفلسطين. وبركتها التوسعة على أهلها بالنِّعَم، قُرًى يُرى بعضُها من بعضٍ لتقاربها، أو راكبة عين [2] الطريق ظاهرة لسالكيها، لم تبعد عن مسالكهم، أي: ظاهرة يقصدها من أراد الشام، وقيل: الظاهرة: كل أرض مشرفة.

وتقدير السير: أن يَقيل المسافر في قرية ويَروح في أخرى، أو على مقدارٍ حيث أرادوا أن يحُلّوا حَلُّوا بقريةٍ.

والأمر قيل: للإباحة، أو المعنى الماضي أي: قلنا لهم، والأولى تنزيل تمكُّنهم من السير وترتيب أسبابه منزلةَ الأمرِ به، والأمن من العدو والجوع والعطش، أيَّ وقت ساروا ليلًا أو نهارًا.

﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾

طلبُهم كطلبِ بني إسرائيل حيث اختاروا البصَل والفوم على لحمِ الطير والترنجبين، كأنهم مَلُّوا العافية، وبطروا النعمةَ، وطلبوا الكدَّ، وقالوا: لو كان جنى جنَّاتنا أبعدَ كان أشهى إلينا، وأن يكون بين رواحلهم مفاوزُ يتزوَّدوا لها الأزواد؛ وذلك ليتطاولوا [3] على الفقراء حيث لم يجدوا الرواحل والأزواد، فأجابهم بتخريب تلك القرى.

---

(١) في (ح): (للحصر).

(٢) في الأصل وباقي النسخ عدا (ن): (غير) وهو تصحيف، والتصويب من (ن).

(٣) في الأصل: (ليتطالوا)، وهو تصحيف، والتصويب من (ح).

وقرئ: ﴿ بَعِّدْ ﴾[1]، و﴿ رَبُّنَا بَاعَدَ ﴾[2]، بلفظ الخبر على أنها شكاية لبعد سفرهم إفراطًا في التّرفيهِ، وأنه لا عبرةَ بما أنعمَ الله عليهم فيه، ومثله ما يقرأ: ﴿ رَبُّنَا بَعَّدَ ﴾[3]، و﴿ بَعُدَ ﴾ على النداء وإسناد الفعل إلى بين[4]، مثل: تَقطَّع بَيْنُهُمْ[5].

وظُلمُ أنفسِهم: بطَرُهم بالنعمة، وعدم الالتفات إليها، وصار ذلك سببًا بأن جعلَهم الله أحاديثَ، يتحدَّث الناس بهم تعجُّبًا، وصاروا ضربَ المثل لطائفةٍ تفرَّقوا غايةَ التفرّق، فيقال: "ذهبوا أيدِيَ سَبأ"[6]، ففرَّقهم غايةَ التَّفريق، حتى لحق غسانُ بالشام، وأنمارُ بيثرب، وجذام بتِهامة، والأزد بعُمان -بالضم والسكون- بلدة بساحل بحر اليمن، وفي ذلك علامةٌ دالةٌ على كونِه سبحانه مجازيًا على الأعمالِ، ومواعظ وعبرًا [7] يعرِفها كلُّ مَن بالغ في حَبسِ نفسِه عن المعاصي، وكان كثيرَ الشكرِ على النِّعم.

﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ ﴾

(١) قرأ بذلك ابن كثير وأبو عمرو. ينظر: المبسوط في القراءات العشر (ص٣٦٢).

(٢) قرأ بذلك يعقوب. ينظر: المبسوط في القراءات العشر (ص٣٦٢).

(٣) ذكرها يعقوب عن يحيى بن يعمر. ينظر: المبسوط في القراءات العشر (ص٣٦٣).

(٤) رويت عن ابن عباس ومحمد بن الحنفية وابن يعمر. ينظر: شواذ ابن خالويه (ص ١٢٢)، شواذ القراءات للكرماني (ص٣٩٠).

(٥) كذا في الأصل وسائر النسخ، ولعله سبق قلم، صوابه: (تَقطَّع بَيْنُكُمْ)، إشارة إلى الآية ٩٤ من سورة الأنعام، فقد قرأ أبو جعفر ونافع وحفص عن عاصم والكسائي: (بينَكم) بالنصب، وقرأ الباقون: (بينُكم) بالرفع. ينظر: المبسوط في القراءات العشر (ص١٩٩).

(٦) ينظر: مجمع الأمثال (١/٢٧٥).

(٧) كذا في الأصل وسائر النسخ بالنصب، ولم يتّضح لي وجهه، والأصل أن يكون مرفوعًا.

قرئ بالتشديد، والمعنى: حقَّق ظنَّه، أو وجدَه صادقًا، وبالتخفيف [1]، أي: صدَق في ظنِّه، أو صدق بظنٍّ ظنًا [2]، نحو: فعلته جهدَك فطاقتَك، ويقرأ بالتشديد ونصب إبليس ورفع الظن [3]، وبالتخفيف [4]، أي: قال له ظنُّه الصدقَ حين خيّل إغواءهم، وبرفعهما والتخفيف[5] على البدل، وذلك على وجهين: إما ظنه بالسبأ لانهماكهم في الشهوات، أو بآدم حين رأى ضعفَ عزمِه، وما ركِّب فيهم من الشهوة، وسَمِع من الملائكةِ ما قالوا فيهم، وحمل ظنه على أن ذلك قولُه: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾ [الأعراف: ١٢، ص: ٧٦]؛ لأن المتبوع يكون خيرًا من التابع، وكفر المشرك أشدُّ من كفر إبليس؛ لأنه لا يعبد غير الله.

والضمير في ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ لأهل سبأ، وقيل: لبني آدم، وفي ذكر الفريق إشارة إلى القلة، وهو كذلك بالنسبة إلى الكفار.

أو ﴿إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ لم يتَّبعوه بالمعاصي، وما كان لإبليس عليهم من تسلُّطٍ بوسوسةٍ واستغواء، إلا ليميزَ السعداء من الأشقياء. ولا دلالة فيه على تجدُّد العلم على هذا.

---

(١) قرأ بالتشديد عاصم وحمزة والكسائي وخلف، وقرأ الباقون بالتخفيف. ينظر: المبسوط في القراءات العشر (ص٣٦٣).

(٢) كذا في الأصل وسائر النسخ، والظاهر أنه تصحيف، صوابه: (صدق بظنٍّ ظنَّه). ينظر: أنوار التنزيل (ص٥٦٨).

(٣) قرأ بها ابن عبد الخالق المكفوف وابن مسلم يعقوب، وأبو علي الضرير عن روح وزيد وغيرهما عن يعقوب. ينظر: المبسوط في القراءات العشر (ص٣٦٣)، شواذ القراءات للكرماني (ص٣٩٠).

(٤) عن العلاء بن سيابة. ينظر: شواذ القراءات للكرماني (ص٣٩٠).

(٥) قرأ بها عبد الوارث عن أبي عمرو. ينظر: شواذ ابن خالويه (ص ١٢٢)، شواذ القراءات للكرماني (ص٣٩١).

أو المراد: إلا أن يتعلّق علمُنا بذلك تعلُّقًا يترتَّب عليه الجزاء، أو ليؤمنَ من [1] أردنا[2] إيمانه، ويشكّ من قدّر ضلاله، فالمراد من حصول العلم متعلَّقُه مبالغة.

ونفي التسلُّط جاز أن يكون باعتبار أنه غيرُ ملجِئ، قال في "الأنوار": (وفي نظم الصلتين نكتة لا تخفى)[3]، ولعلَّ مرادَه بها أن تركيبَ الصلة الأولى من الجملة الفعلية يناسب حصول الإيمان باعتبار التجدُّد [4]؛ لأنه يحصل بعد النظر في الإمكان الذاتي، وإخبار الصادق عنه، والثانية تناسب الاسميةَ الدالة على الاستمرار الذي هو مقتضَى الطبيعةِ العريّة عن التفكُّر والتدبُّر، فإنَّ الاستعداد ما لم ينضمَّ إليه بأنه تحصيل العلم يكونُ كالعدمِ.

والحفيظُ المحافظ، والوزنان متآخيان [٧٣٥/ب]، وفيه ترغيبٌ وترهيبٌ، ويدخل في مفهومه العلمُ والقدرة؛ إذِ الجاهل أو العاجِز لا يمكِن لهما الحفظُ.

﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾

أي: قل -يا محمد- للمشركين: ادعُوا الذين ادَّعيتم أنهم آلهةٌ من دونِ الله من الملائكةِ وغيرِهم، والتجِئُوا إليهم التجاءَكم إليَّ، وانتظِروا الإجابةَ كما تنتظرون [5] رحمةَ الله عند الدعاء. ثم أجابَ بالجواب المتعيِّن، وهو عدمُ الفائدة في الدعاءِ بذكر ملزومه، وهو أنهم لا يملِكون مثقالَ ذرةٍ من خيرٍ أو شرٍّ في السموات والأرض، وما لهم في الجنسَين من شِركة في الخلق ولا في الملك؛ لقوله[6] تعالى: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الكهف: ٥١]، وما وما لهم من يعينهم في الخلق وغيره، والمعنى: أنه لو كان لهم فيهما ملك، أو كان لهم شِركة،

(١) في الأصل: (ما)، وهو تصحيف، والتصويب من (ح).

(٢) في (ح): (قدّرنا).

(٣) أنوار التنزيل (ص٥٦٩).

(٤) في الأصل: (التحذر)، وهو تصحيف، والتصويب من (د).

(٥) في الأصل: (ينتظرون)، والمثبت من (ح)، وهو الأنسب.

(٦) في (أ، ح): (كقوله).

أو كان لهم من يعينهم في خلقها، لاستحقُّوا أن يُعبَدوا بالنظر إلى شيءٍ من هذه الأمور، والمقصودُ المبالغةُ في تسفيهِ رأيِهم، حيثُ عبَدوا مثلَ ذلك.

فإن قيل: ما فائدةُ التقييد بالسموات والأرض، ولو لم يقيِّد لكان أشملَ، وهو تناولُه لما بينهما؟

قلنا: لعل ذلك لمطابقة الواقع، فإنهم لم يتِّخذوا إلا الآلهةَ السماويةَ كالملائكة والكواكب، أو الأرضيةَ كالمسيح وعُزَير [1] والأصنام. وأيضًا وقوعُ النفع والضرِّ لا يكونُ إلا فيهما؛ لأنَّ السموات مبدأ ظهورِ الخيرات، والأرض مهبطها.

وتقدير مفعولَي (زعم): زعمتموهم آلهةً مِن دون الله، وحذف الراجع المنصوب لطوله مع صِلَته، مثل [2]: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ﴾ [الفرقان: ٤١]؛ إذ التقدير: بعثه، ولا يصحُّ فعل[3] هذا الضمير الأول، و﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أو ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ الثاني؛ لأنهم ما زعموا ذلك، ولو قدّروه هكذا لكان حجةً عليهم، وأيضًا كان حقًّا وتوكيدًا لمقصدنا.

﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾

ومما يُبطل مدَّعاهم في أنّ تلك الآلهةَ تشفَع لهم أنَّه لا تنفَع الشفاعةُ عند الله إلا لمن أذِن له، وهو الشافِع، كما تقول: الكرَم لزيدٍ، وإن قدرت المشفوع له، فهو مثل قولك:

---

(١) هو: عزير بن جروة، ويقال: ابن شوريق ، ويقال: عزير بن سروخا ، وينتهي نسبه إلى هارون بن عمران، قيل: قبره بدمشق. ينظر: مختصر تاريخ دمشق ٢٨٢/٥.

(٢) في الأصل: (منع)، وهو تصحيف، والتصويب من (ح).

(٣) كذا في الأصل وسائر النسخ، والأقرب أن يكون: (ولا يصحّ جعلُ)، والمقصود: أنه لا يصحُّ جعل هذا الضمير المفعول الأول لـ ﴿زَعَمْتُم﴾، وجعلُ ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أو ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ المفعول الثاني له.

القيام لزيدٍ، والتقديرُ: ولا تنفَع الشفاعةُ إلّا كائنَةً لمن أذِن له، أي: لشفيعه، أو هي اللام الثانية: أذِن لزيد لعمرو، أي: الإذنُ للشفيع لأجله.

ومعنى ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ﴾: أن انتظار الإذن في الشفاعة يمتدُّ معهم فزِعين، حتى إذا كُشِف الفزع عن قلوب الشافعين والمستَفزَع لهم يتكلَّم بها ربُ العزة في إطلاقِ الإذن، وهذا الكلام الذي تعلَّق به ﴿حَتَّىٰٓ﴾ وإن لم يسبق صريحًا لكنه مدلولٌ عليه بقوله: ﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾. ثم إذا ورد الإذنُ تباشر به الفريقان وقالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: قال الحقّ، وهو الإذنُ في الشفاعةِ لمن رضيَها له، وعن النبي ﷺ: ((**إذا أذن أن يشفع فزعته الشفاعة**))[1].

والمنقول عن جمهور المفسرين أن الله إذا أراد إحداث أمر بوحي أحدث في السماء صوتًا يشبه جر السلاسل على الصفوان، ويشبه ذلك ما أجاب النبي ﷺ حين سئل عن كيفية مجيء الوحي: ((**يأتيني أحيانًا مثل صلصلة الجرس، فيفصم عني حين يفصم وقد وعيته، ويأتيني أحيانًا في صورة الرجل، فيكلمني كلامًا، وهو أهون علي**)) [2]، وكذا نُقِل عن ابن عباس [3] في هذه الصورة، فتفزع الملائكة مخافة أن تكون القيامة لأنَّ مجيءَ النبيِّ عليه السلام دليلُها، فإذا زال الفزع عن قلوبهم سألوا جبريل ومن معه، فالضمير في ﴿قُلُوبِهِمْ﴾ قيل: يرجع إلى الملائكة، وقد تقدَّم ذكرهم، وقيل: يخافون أن يضعوا الشفاعة غيرَ موضعها، وقيل: المسئول عنهم القائلون الحقَّ هم الكفار، يسألهم الملائكة.

---

(١) ذكره الزمخشري في الكشاف (٥٨٩/٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، ولم أقف عليه، وقال الزيلعي في تخريج الكشاف (١٤١/٣): "غريب".

(٢) أخرجه البخاري (٢، ٣٠٤٣)، ومسلم (٢٣٣٣)، من حديث عائشة رضي الله عنها بنحوه.

(٣) عن ابن عباس في قوله ﷻ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ قال: (كان لكل قبيل من الجنّ مقعد في السماء يستمعون منه الوحي ، وكان إذا نزل الوحي سمع له صوت ك إمرار السلسلة على الصفوان ، فلا ينزل على أهل سماء إلا صُعقوا ، حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم؟ قالوا الحق وهو العلي الكبير) الأثر، عزاه السيوطي في الدر المنثور (٢٣٦/٥) للبيهقي وابن أبي شيبه وابن مردويه وأبي نعيم في الدلائل.

ويقرأ: ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ بالرفع[1].

ووصفُه سبحانه بالعلوّ والكبرياء مناسبٌ لهذا المقام؛ إذ ليس لأحد حتى الملائكة والنبيين أن يتكلَّموا إلا بإذنه.

﴿۞ قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُلِ ٱللَّهُۖ وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٢٤﴾

يجري مجرى على ما سبق؛ لأنَّ الاعترافَ بهذا المستلزم لصحة ذلك لكونهما مقدورَين يستلزم القولَ به، ولتعيُّن الجواب أمر بأن يجيبَ عنهم، ويشعر ذلك بأنهم وإن أنكروا بألسنتهم فهم مقِرّون بقلوبهم، ولم يتلفّظوا لئلّا يُلزَموا بالعبودية لله.

ورزق السماء: المطَر، ورزقُ الأرض بالنبات[2].

ثم قال: وإذا لم يكن بدّ من كون أحدِ الفريقين المتقابِلين: العابدون الموحّدون لمن يرزقُهم، والمشركون التاركون عبادتَه، على الهدى والآخرون على الضلال، فإنهم أولى بالهدَى، ولا يخفى اختصاصُ الأوَّلين بالهدى، والآخرين بالضّلال، وهذا كلامُ المنصِف الذي يقبله المخالِف والموافق، وهو مثل قول الإنسان لصاحبه: قد علِم الله الصادقَ مني ومنك، وإنَّ أحدَنا كاذب، ومنه بيت حسان:

أتهجوه ولستَ له بكفءٍ فشرُّكما لخيركما الفداء

وتخصيص (على) بالمهتدي[3] و(في) بالضال[4]؛ لأن الأول مستعلٍ كأنه راكبُ فرس، والثاني واقعٌ في ظلام لا يتخلَّص.

---

(١) قرأ بالرفع ابن أبي عبلة. ينظر: شواذ القراءات للكرماني (ص٣٩١).

(٢) في (ح): (النبات).

(٣) في (ح): (بالمهتدين).

(٤) في (ح): (بالضُّلّال).

﴿ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾ [٧٣٦/أ]

أي: يختصّ كلّ فريق بجزاء عملِه من خير أو شرٍّ، وهذا أدخل في الإنصاف، حيث أسند[1] الإجرامَ إلى نفسه ومن تبعه، ومطلقَ العمَل إليهم، مع أنَّ المرادَ بالإجرام صغائرُ الذنوب، والعملِ الكفرُ والمعاصي.

وفَتحُ اللهِ: قضاؤُه وحُكمُه بإدخال السعيدِ الجنةَ والشقيِّ النارَ. وذكر الفتَّاح بعد إسناد الفتح لبيان المبالغة في القضاء كيفيَّةً وكميةً، لاسيَّما وذكَر العليمَ الذي هو الشرط في ذلك.

ومعنى ﴿أَرُونِىَ﴾: أَعلموني بأيّ موجبٍ ألحقتُم بالله شركاءَ؟ وطلب الإراءةَ مع حصولها ليريهم[2] الخطأ العظيم في ذلك، وأن يقاس على أعينهم بين الله وبين آلهتهم ليطلعَهم على إحالةِ جوازِ الإشراك، و ﴿كَلَّا﴾ ردعٌ عن ذلك بعدَ بيان استحالتِه، كأنّه قال: ارتدِعوا وتنبَّهوا على الخطأ بعد هذا البيان.

وذكر العزيز الذي هو الغالِب الذي لا يُغلب، والحكيم الذي لا يفعل ما يفعل إلا بأحسن التدبير والعلم الدقيق وإن خفِي على الناظر؛ لزيادةِ بيانٍ في إبطال ما هُم عليه؛ فإنه كيف يسوِّغ الفعلُ[3] العدولَ عن عبادته إلى عبادة من هو مقهورٌ تحت حُكمه، سيما الجمادُ الذي لا يوصَف بكمالٍ أصلًا؟!

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

(١) في الأصل: (سند)، وهو تصحيف، والتصويب من (ح).

(٢) في الأصل: (ليريهما)، والمثبت من (ح)، وهو الأنسب للسياق.

(٣) كذا في الأصل وسائر النسخ، ولعل صواب العبارة: (كيف يسوِّغ العقلُ).

وهذا مما يقتضي تركَ الإشراكِ الذي يأمُر به النبيُّ ﷺ.

وأيضًا لما فرغ من مسألة التوحيد شرع في بيانِ الرسالة، وبَعثه[1] بعد جميع الأنبياء وختمًا لهم ليكونَ نبيًّا إلى جميع الخلق من اليومِ إلى آخرِ الدهر، والتقديرُ: وما أرسلناك إلا إرسال[2] عامّة لهم، مأخوذ من الكفّ، فإنها إذا عمَّتهم فقد كفَتهم أن يخرُج منهم أحدٌ، أو جامعًا، وهو حال من الكاف، لا المجرور، لعدم جواز تقدُّمها على المجرور على الأصحّ؛ لاستلزامه تقدّم المجرور على الجار، وإن ورد صورٌ شاهدة على الجواز في الجملة، فإنَّ المجوِّز -وهو أبو علي[3]- قاس على سائر أحوال الأفعال[4]، واستشهد بقول الشاعر:

إذا المرءِ أعيته المروءة ناشئًا فمطلبها كهلًا عليه شديد

ونحوه.

و﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ جاز أن ينتصِبَا بتقديرِ: أعني.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لعدم علمهم برسالتك، أو بكونك بشيرًا ونذيرًا.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾

(١) في الأصل: (وتعينه)، والمثبت من (ح).

(٢) في (ح، د، ن): (إرسالة).

(٣) هو: إمام النحو أبو علي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسي الفسوي ، صاحب التصانيف، ومصنفاته كثيرة نافعة، له كتاب الحجة في علل القراءات ، وكتابا الإيضاح والتكملة، وغيرها، وكان فيه اعتزال، عاش تسعًا وثمانين سنة، مات ببغداد في ربيع الأول سنة سبع وسبعين وثلاث مئة . ينظر: سير أعلام النبلاء ٣٧٩/١٦.

(٤) الاسم المجرور بحرف جرٍّ أصليٍّ منع سيبويه وأكثر البصريين تقدُّمَ الحال عليه، ونقل عن ابن كيسان وأبي علي وابن برهان الجواز. ينظر: شرح الرضي على الكافية (٣٠/٢).

هذا الكلام إنذارٌ، وتخصيصُه مع ذكرِ البشارةِ لأنه إذا لم ينفع فالبشارة بطريق الأولى.

والميعادُ وإن جاز أن يكون مكانَ الوعد، لكن هنا المرادُ الزمانُ، ويؤيِّده أنه يقرأ: ﴿مِيعَادٌ يَوْمٌ﴾ على البدل[1]، و﴿مِيعَادٌ يَوْمًا﴾[2]، والإضافة مثل: جرد قطيفة؛ إذ المقصود التبيين، والنصب بتقدير: أعني.

وفيه تعظيم اليوم، ويناسب ذلك سؤالهم عن مجيء الساعةِ على سبيلِ الاستهزاءِ، والمعنى: لا استعجالَ فيه كما لا إمهالَ.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ بِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَلَا بِٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ ٣١ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُمۡ بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ ٣٢﴾

سببُ كُفر كفَّارِ مكةَ بكُتُب الله التي بينَ يدَيِ القرآن أنَّهم سألوا أهلَ الكتاب فأخبروهم بأنهم يجِدون صفَةَ رسول الله ﷺ فيها. وقيل: يوم القيامة، فإنَّ القرآنَ دلَّ عليه للجزاء، فخاطب اللهُ سبحانه النبيَّ أو كلَّ مخاطَب أنَّك لو رأيتَهم وقد أوقَفوهم للمحاسبة عند ربِّهم، وهم يراجِعون الكلام فيما بينهم بالمعاتَبة والملامة، ويَبرأ بعضُهم عن بعض، وقد ترك ما كان بينَهم من الخُلَّة والمحبَّة؛ لرأيتَ أمرًا عجِيبًا. وحذَفَ الجوابَ للدلالة على عظَمِ[3] الأمر.

ويقول الأتباع وهم المستضعَفُون للقادةِ والرؤساءِ وهم المستكبِرون: لولا أنَّكم دعوتُمونا إلى الكفر وزيَّنتُموه لنا لما كفرنا بمحمَّدٍ ﷺ، بل كنا مؤمنِين به مصدِّقين له. فأجاب المستكبرون على وجهِ التأكيد، حيث أدخلوا همزةَ الإنكار على (نحن) بإنكار ذلك، أي: ما

(١) قرأ بها طلحة. ينظر: شواذ القراءات للكرماني (ص٣٩١).

(٢) قرأ بها اليزيدي. ينظر: شواذ ابن خالويه (ص١٢٣)، شواذ القراءات للكرماني (ص٣٩١).

(٣) في الأصل: (عظيم)، والمثبت من (ح).

صددناكم عنِ الهدى بعدَ إذ جاءكم، وما كان لنا عليكُم من سلطانٍ، بل أنتم منَعتُم أنفسَكم الاهتداءَ، واخترتُم الضلالةَ على الهدى، واتبعتُم شهواتِكم، وما استَعمَلتم عقولَكم، وكأنَّ[1] المانع إنما يصلح مانعًا أن لو كان راجحًا على المقتضي، والذي جاءكم كان هو الهدَى، والذي صدر منا لم يكُن شيئًا يقتضي الامتناعَ عنه.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

كأنَّهم سلَّموا إلى المستكبرين أنَّهم ما أتَوا بالصارف التامِّ، بل انضمَّ إليه مكرُ الليلِ والنهارِ، وهو طولُ الأمَد، فكان منعُكم جزءَ السبب؛ إذ المرادُ مكرُكم بالليل والنهار، فأبطلوا إضرابَهم عن الإغواء[2] بإضرابهم بأن قالوا: كان الإجرامُ من جهةِ مكركم [٧٣٦/ب] ليلًا ونهارًا، وعلى هذا يكونُ قد أجرى الظرفَ مجرى المفعولِ به اتِّساعًا، وإضافةُ الزمان إلى (إذ) لا ينافي كونَ (إذ) لازمةً للظرفية؛ لأنهم قد اتَّسعوا في الزمانِ ما لم يتَّسعوا في غَيره، فأضافوا[3] إليه كما أضافوا إلى الجمل في قولك: جئتك إذا جاء زيد، وحينئذ.

ويقرأ: ﴿ مَكْرُ اللَّيْلَ ﴾ بالتنوين ونصب الظرف [4]، و ﴿ مَكَرُّ اللَّيْلِ ﴾ من الكرور [5]، وعلى هذا رفعُه بأنه مبتدأ، أي: مَكرُكم سببُ ذلك، أو خبر، أي: سبب ذلك مكرُكم، ونصبه[1] بتقدير: تكرّون الإغواء[2] مكركم[3].

---

(١) في الأصل: (وكانهم)، وهو تصحيف، والتصويب من (ح).

(٢) في (ح): (الإغراء).

(٣) في (ح، د): (فأضافوه).

(٤) عن يحيى بن يعمر وقتادة. ينظر: شواذ ابن خالويه (ص ١٢٣)، شواذ القراءات للكرماني (ص٣٩٢).

(٥) عن سعيد بن جبير وجعفر بن محمد. ينظر: شواذ ابن خالويه (ص ١٢٣)، شواذ القراءات للكرماني (ص٣٩١).

وذكر العاطف في ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ﴾ هنا دون الأول؛ لأنَّ في الأول ذكَرَ كلامَهم أوّلًا، فجاء الجوابُ على طريقةِ الاستئناف، ثمّ لما جاء كلامٌ آخرُ لهم على طريقِ العطف.

وضمير ﴿ أَسَرُّوا ﴾ للظالمين؛ لشمول الندامةِ التابعَ لضلاله بالاتباع والمتبوع به وبالإضلال.

والعدلُ من الضميرِ إلى الظاهر(٤) ليعلم أنَّ علَّةَ جعلِ الأغلال في أعناقِهم كُفرٌ.

﴿ وَأَسَرُّواْ ﴾ قيل: من الأضداد، فيحتمل الإخفاء والإظهار بعضهم لبعض.

والجزاء لما كان كدَينٍ يُقضَى قال: هل يجزَى المسيءُ إلا بإساءَتِه؟! أي: هل يُقضَى إلا عمَلُه؟! وقيل: أصله: بما كانوا، فحذف الجارّ.

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾

فيه تسليةٌ للنبيِّ ﷺ؛ إذِ المعنى: ما أُرسِل نبيٌّ إلى أهلِ قريةٍ إلا قال متنعِّمُوها له مثلَ ما قال كفَّارُ مكَّةَ لك، واعتَقَدوا أنهم أكرَمُ على الله، حيثُ خُصُّوا بزخارفَ، وأنهم لو لم يكونوا مستَأهلين لها لما أُعطُوا؛ ولهذا كانوا يتطاوَلون على الفقراءِ، ويتفاخَرون بكثرةِ الأموالِ والأولادِ، وحمل عدم التعذيبِ على أنَّ إكرامهم يدلُّ عليه، ويحتمل أن يكون ذلك لإنكار الحشر أيضًا، كما هو المحكيُّ عنهم في غيرِ هذه الآيةِ، وإن كان ما بعدَه يدلُّ على الأوَّل،

=

(١) قرأ راشد القارئ: ﴿ مَكَرَّ ٱلَّيۡلِ ﴾ بالنصب والتشديد وجرِّ الليل. ينظر: شواذ ابن خالويه (ص١٢٣)، شواذ القراءات للكرماني (ص٣٩١-٣٩٢).

(٢) في (ح): (الإغراء).

(٣) كذا في الأصل وسائر النسخ، ولعله تصحيف، صوابه: (مكرًا)، والله أعلم.

(٤) أي: في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾.

غيرَ أنه يحتَملُ أن يقولُوا على الفرض والتقدير: على فرضِ أن نُبعَثَ لن نُعَذَّبَ؛ لأنه قد ثبَت أنهم كانوا مُنكرين.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾

قيل في الارتباط: إنه إبطالٌ لما اعتقَدوه من أنهم لا يعذَّبون في الآخرة حيث أُنعِم عليهم في الدّنيا؛ بأن الله يوسِّع في الدنيا رزقَه على من يشاء، سواء كان مؤمنًا أو كافرًا، وقد يضيِّق على كلٍّ منهما، لا لإكرام الأوَّل وإهانةِ الثاني [1]، أو استحقاقٍ سابقٍ.

وعدم جمع الموصول لأن المعنى: ما جماعة أموالكم وأولادكم[2] بالتي تقرِّبكم؛ لأنَّ الجمع المكسَّر سواء كان للعقلاء أو غيرهم أمره في التأنيث واحدٌ. ويجوز أن يكونَ صفةً محذوفةً كالتقوى والخصلة أي: ليست أموالكم بتلك الموضوعة [3] للتقريب إلى الله. ويقرأ: ﴿بِالَّذِي﴾[4] أي: بالشيء الذي.

و﴿زُلْفَىٰ﴾: قربة ودرجة، فهي اسم، ويجوز أن يكون [مصدرًا من غير لفظ الفعل، أي: إزلافًا. والاستثناء من مفعول ﴿تُقَرِّبُكُمْ﴾ أي: لا تقرِّب الأموالُ والأولادُ إلى الله أحدًا إلا المؤمنَ الذي يعمَل الصالحاتِ، وينفقُ أموالَه في سبيلِ الله، ويعلِّم ولدَه الخير، ويربِّيه على الخيرِ والصَّلاح. ويجوز أن يكون] [5] على حذف المضاف، أي: أموال وأولاد من عمِل صالحًا، ومن قال: منقطع، فالتقدير: لكن من آمَن وعمِل صالحًا.

---

(١) في الأصل: (للثاني)، وهو تصحيف، والتصويب من (ح).

(٢) في (ح): (ولا أولادكم).

(٣) في (ح): (الموصوفة).

(٤) عن الضحاك. ينظر: شواذ القراءات للكرماني (ص٣٩٢).

(٥) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل، وهو ثابت في (ح).

و ﴿جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ﴾ هو: [أن] [1] يتجاوزَ منه إلى عشرة فما فوقها، وهو مفعولُ الجزاء، فإنه مصدَر. ويقرأ بإعمالِه على الأصل، أي: ﴿جَزَاءٌ الضِّعْفَ﴾[2]، وقراءة[3] يعقوب على رفعهما[4] محمولة على أن الضعف بدل الجزاء، ويقرأ بنصب الجزاء [5]، والتقدير: أولئك لهم الضعف جزاءً، فيكون على التمييز، وبنصب الضعف، أي: يُجازَوا[6] الضعفَ.

وقرئ ﴿الغُرْفَةِ﴾[7]، وحيث يراد الجنس يكون كالجمع، ويقرأ بفتح الراء [8]، وسكونها[9]، أي: يأمنون المكاره فيها، وفسرت بنفس الجنَّات [10]، ويجوز أن يكونَ لكلٍّ غرفات.

---

(١) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل، وهو ثابت في (ح).

(٢) عن الضحاك. ينظر: شواذ القراءات للكرماني (ص٣٩٢).

(٣) في الأصل: (وقرأ)، والمثبت من (ح).

(٤) رفعهما هو قراءة أخرى للضّحاك، وأما يعقوب فقرأ ﴿جَزَاءً﴾ بالنصب منوَّنا، و ﴿الضِّعْفُ﴾ مرفوع. ينظر: شواذ ابن خالويه (ص ١٢٣)، شواذ القراءات للكرماني (ص ٣٩٢)، المبسوط في القراءات العشر (ص٣٦٤). ولعل ما ذكره المصنف هو رواية أخرى عن يعقوب، والله أعلم.

(٥) تقدم بيان أنّ هذه قراءة يعقوب.

(٦) في الأصل: (تجاوزوا)، وهو تصحيف، والتصويب من (ح).

(٧) قرأها بالإفراد حمزة. ينظر: المبسوط في القراءات العشر (ص٣٦٤).

(٨) قرأ (الغُرَفاتِ) أبو جعفر. ينظر: شواذ ابن خالويه (ص ١٢٣)، شواذ القراءات للكرماني (ص٣٩٢).

(٩) قرأ (الغُرْفاتِ) الحسن والأعمش ومحمد بن كعب. ينظر: شواذ ابن خالويه (ص ١٢٣)، شواذ القراءات للكرماني (ص٣٩٢).

(١٠) في (ح): (الجنان).

﴿ وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥۚ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾

أي: يسعَون في إبطالها والطَّعن فيها لإبطال دينِنا؛ قاصدِين أن يسبِقوا أنبياءَنا على ظنِّ أنهم يفوتُوننا.

ولقائلٍ أن يقول: ذِكرُ عذابهم مؤَكَّدٌ من أربعة أوجه: إعادة الصفات بذكر اسمِ الإشارة، وتركيبُها من الجملة الاسمية الدَّالة على الثبوت، وإطلاق العذابِ المتناوِل لأنواعِه، ولفظ الإحضار المشعِر بالقَهر، وذكرُ بسطِ الرزق وتقتيره ليس بتكرير؛ لأن فائدَته جعلُه مقدِّمةَ الإنفاق، وأن الله يعوِّضه عنه لا معوِّضَ غيرُه، وعُلِم بتقديم الضمير [1]، أو الأول في الكفار، وهذه في المؤمنين، وقد يكون في الدنيا بإعطاء المال أو القناعة، فإنها مالٌ لا ينفَد، أو في الآخرة بالثواب، وقيل فيهما: إذا أنفقه في الخير، وعن مجاهد [2]: (من كان عنده مالٌ يقيمُه يقيمُه فليقصِد؛ فإنَّ الرزق مقسومٌ، ولعلَّ ما قُسِم له قليلٌ، فينفِقُ نفقَة الموسَّع عليه، ويبقى طولَ عمره في الفقر)[3].

(١) أي: عُلِم الحصرُ من تقديم الضمير في قوله تعالى: ﴿فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ﴾، أي: لا يخلفه غيره.

(٢) هو: مجاهد بن جَبر -بفتح الجيم وسكون الموحدة- أبو الحجاج المكي ، المقرئ، المفسّر، الإمام، مولى السائب بن أبي السائب المخزومي، ولد سنة إحدى وعشرين في خلافة عمر بن الخطاب ، وتوفي بمكة سنة إحدى أو اثنتين أو ثلاث أو أربع ومائة وهو ساجد، وله ثلاث وثمانون سنة . ينظر: سير أعلام النبلاء ٤/٤٤٩، طبقات المفسرين للداوودي ٢/٣٠٥.

(٣) رواه سفيان الثوري عن أبي يونس عن مجاهد ، كما في تفسيره (ص ٥٩). وعزاه السيوطي في الدر المنثور (١٢/٢٢٥) للفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

وإنما كان الله خيرَ الرازقين لأنَّ كلَّ مَن يرزقُ أحد [1] كزوجةٍ وعبدٍ وجنديٍّ فالله هو الرازق، وقد أجرى الرزقَ على أيدِي هؤلاء؛ ولهذا قيل: معناه: ما أنفقتم فالله أخلَفكم [2]، أي: أعطاكم ورزقكم.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمْ ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [٧٣٧/أ]

أي: يحشر العبَدَة والمعبودِين، ثم [نقول][3] للملائكة الذين عُبِدوا.

وهم بنو مُلَيحٍ[4]، فإنهم زعَموا أنَّ الملائكة بنات الله فعبدوهم، وقيل: المشركون.

و﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ هنا كما في قول عيسى عليه السلام: ﴿سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ﴾ [المائدة: ١١٦]؛ إذ المعنى تنزيهُ الحقِّ عن أن يُشرَك به شيءٌ، والحكمةُ تقريعُ الكفَرة، وعلى وجه السؤال والجواب كان [5] أبلغَ.

ومعنى: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾: الذي نواليه من دونِ الكفرة، وكأنَّهم استدلُّوا على عدم الرضا بعبادتهم إيَّاه إثبات[6] موالاةِ الله ومعاداة الكفار.

---

(١) كذا في الأصل وسائر النسخ، والأولى أن يكون منصوبًا.

(٢) في الأصل: (خلفكم)، والمثبت من (ح).

(٣) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل، وهو ثابت في (ج، ح)، وهو فيهما بالنون في أوله على قراءة كما سيأتي، والأنسب للسياق هنا أن يكون بالمثناة التحتية: (يقول).

(٤) هم: بنو مُليح بن عمرو بطن من خزاعة من القحطانيين. ينظر: معجم قبائل العرب (٣/ ١١٣٨).

(٥) في الأصل: (أن)، وهو تصحيف، والتصويب من (ح).

(٦) كذا في الأصل وسائر النسخ، والمناسب للسياق: (بإثبات).

ثم أثبتوا[1] أنهم ما عبدوا إلا الشياطين، حيث امتثلوا أمرهم في الإشراك بالله، أو أنهم صوَّروا لهم صُور[2] قومٍ من الجن، وقالوا: هذه ملائكةُ الله فاعبدُوهم، أو كانوا يدخلون أجوافَ الأصنام، فيعبدونهم بعبادَتها، وأكثر الكفرةِ بالجنِّ مؤمنون بهذه[3] الاعتبارات. وقيل: كلهم، وقيل: إنما قالوا: (الأكثر) لأن محلَّ الإيمان القلب، ولعلَّ الملائكة لم يطَّلعوا على جميع ذلك، لاسيما وفي ذلك اليوم لا يملك غير الله سبحانه أحد شيئًا.

والالتفات عند ذكرِ عدم ملك بعضهم لبعض نفعًا من رجاء الشفاعة للعناية بالتقريعِ.

والضرُّ وإن كانوا سببَه، لكن [لا][4] بالاستقلال.

والظلمُ حمِل على الكفرِ للسِّياق.

وقيل: القول صِلة، والأمر في معنى الخبر[5]، أي: ونذيقكم عذاب النار. وقيل: القائلون القائلون الملائكة، وقرئ بالنون والياء[6].

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ ﴾

أي: إذا تُلِيت عليهم آياتُ القرآن قالوا لمحمد ﷺ ذلك، وقالوا للقرآن: ما هو إلا سحرٌ، وقيل: القول بالوحدانية كقولهم: ﴿ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا ﴾ [الأحقاف: ٢٢].

والحقُّ: أمرُ النبوَّةِ ودينُ الإسلام.

---

(١) في الأصل: (ثبتوا)، والمثبت من (ح).

(٢) في (ح): (صورة).

(٣) في الأصل: (بهذا)، والمثبت من (ح).

(٤) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل، وهو ثابت في (ح).

(٥) المقصود بالقول قوله تعالى: ﴿ وَنَقُولُ ﴾، والمقصود بالأمر قوله تعالى: ﴿ ذُوقُوا۟ ﴾.

(٦) قرأ حفص عن عاصم ويعقوب بالياء، وقرأ الباقون بالنون: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ ﴾. ينظر: المبسوط في القراءات العشر (ص٣٦٤).

وفي وصف السِّحر بأنه مبينٌ مبالغةٌ في وصفِ كُفرهم، حيث أكَّدوا كونَه سحرًا قبل أن يتأمَّلوه، لاسيَّما وقد ذكروا ذلك عَقيبَ الآياتِ الموصوفةِ بأنها بيِّنةُ الدلالةِ باعتبارِ الإعجازِ الظاهرِ، واعتقَدوا أنَّ قصدَ النبيِّ ﷺ بصدِّهم عن معبودِي آبائهم طلبُ السيادةِ عليهم.

ومعنى المفترَى: المفترَى على الله، ووصفُ القرآنِ بالسِّحر لعجزهم عن الإتيانِ بمثلِه، وكونُه سحرًا أي: باعتبار نفسِه، وكونُه مفترًى مِن فعلِه عليه السلام، أو الرميُ بالإفكِ مِن قولِ الرؤساءِ، والسحرِ من قولِ الباقِين.

﴿ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ﴾

تكذيبٌ لهم باعتبارِ أنَّ العلمَ بما قالوه لم يحصُل إلا بكتابٍ أو رسولٍ، ولم يأتِهم كتابٌ؛ لأنَّهم أمِّيُّون[1]، ولا رسولٌ، وأهلُ الكتاب وإن كانوا مُبطِلين فيما زعَموه بشهادة كُتُبهم أيضًا، لكنه شبهةٌ في الجملة، أو المرادُ أنه لا دليلَ لهم على صحَّة الإشراكِ الذي هو دينُهم، ولم يأتهم نذيرٌ يُنذرهم على تركِه.

وفي ذكر تكذيبِ الأمم المتقدِّمة عليهم وعيدٌ لهم؛ لأنَّ أولئك لما كذَّبوا جاءهم إنكارِي بالاستئصال، فكأنه قال: فأنتم مع أنَّكم ما بلَغتُم جزءًا من عُشر ما آتَينا الأوَّلين من القوَّة -وقيل: المعشار كالمرباع، فهو العشر، كما أن المرباع الربع- أولى بأن لا يغني عنكم[2]، وقيل: ما بلغ [أولئك شكرَ معشار ما آتيناهم من النِّعمة، أو ما بلغوا معشارَ ما عمِلوا

(١) في الأصل: (امنون)، وهو تصحيف، والتصويب من (ح).

(٢) زاد في الأصل في هذا الموضع كلمة (أولى)، وليست في (ح)، وهو الأنسب.

معشار ما أمروا به، أو ما بلغ] [1] [أولئك ما بلغ] [2] قومك من البرهان والعلم، قال ابن عباس رضي الله عنهما: (ليس أمة أعلم من أمة محمد، ولا كتاب أبين من كتابه) [3].

وقرئ: ﴿يَدْرُسُونَ﴾ من الدرس [4]، و ﴿يُدَرِّسُونَ﴾ من التدريس [5]، ويقرأ: ﴿يَدَّرِسُونَهَا﴾ يفتعلون من الدرس[6].

وذكرُ التكذيب بالفاء ثانيًا؛ لأنه مسبَّب من مطلَق التكذيب، كما يقال: أقدم فلان على الكفر فكفَر بمحمَّد عليه السلام، ويقرُب منه ما قيل: إنهم كانوا كذَّابين قبل مجيء الرسُل بالشّرك وإنكار الحشر، فلما جاءهم الرسل نسبوهم إلى الكذب حيث خالفوا ما كانوا عليه.

والنكير: حُمِل على الإنكار والعقابِ وجزاء المنكَر.

﴿ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ ﴾

(واحدة) صفة خصلة مفسَّرة بقوله: ﴿أَن تَقُومُواْ﴾، والقيام إما من مجلس النبيِّ عليه السلام، أو الانتصاب في الأمر، أي: أعِظكم بأمرٍ لو فعلتموه علِمتم حقيقةَ أمر النبوَّة، وذلك بأن تقوموا طارِحين للهوَى والتقليد، اثنين اثنين، وواحدًا واحدًا؛ ليشاور في الأوَّل كلٌّ منهما

(١) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل، وهو ثابت في (ح).

(٢) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل، وهو ثابت في (ن).

(٣) ذكره الماوردي في النكت والعيون (٤/٤٥٥).

(٤) وهي قراءة العامة.

(٥) عن أبي حيوة. ينظر: شواذ ابن خالويه (ص١٢٣)، شواذ القراءات للكرماني (ص٣٩٢).

(٦) عن أبي البرهسم. ينظر: شواذ القراءات للكرماني (ص٣٩٢).

صاحبَه فيما فكَّر فيه، أو الفرد يفكِّر في نفسِه بإنصافٍ واستيفاءِ فِكْرٍ، فينظر ما يستقرُّ عنده، والقيام بهذا الوجهِ دون الاجتماع؛ لأنه يمنع الفِكر ويشوِّش [الذهنَ][1].

ولقائلٍ أن يقولَ: لعلَّ المرادَ إزاحةُ شبهتِهم، فإنهم لو [٧٣٧/ب] أُمروا بالانفراد فلعلَّهم قالوا: يوافق الحقّ اطرادك[2]، ولو عكس لقيل: فكر الواحد من غير شاغلٍ لفكرٍ من كلامٍ آخرَ أقوى، وذكر في معناه أنكم تعلمون أنه لا يقوم بهذا الأمر العظيم الذي تحته مُلكُ العالمين وسعادةُ المنزلين إلا مجنونٌ، لا يبالي بما يعود عليه من الافتضاح والسخرية به، أو كامل عقل مختارٌ من أهل العالم كالنبيِّ، والأولُ باطل لما اشتهر عندكم: أرجحُ قريش بل أهل زمانه عقلًا، وأصدقُهم مقالًا، وأكبرهم حكمًا، وأصوبهم رأيًا، وأعظمهم أمانة، وأشفقهم على الخلق، وأجودهم بالمال، وأكثرهم استعدادًا لمآل، وأدقهم نظرًا وفكرًا، إلى آخر كمالات لا يعلمها إلا الله، فكيف يوصف بالجنون؟!

وقيل: ﴿مَا﴾ للاستفهام أي: أيُّ شيءٍ بصاحبكم مِن أمارات الجنون؟

وقوله سبحانه: ﴿مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟﴾[3] محلُّه الجرّ على البدل أو البيان، أو الرفع أو النصب بإضمار هو أو أعني. و ﴿مَا بِصَاحِبِكُم﴾ إما متعلِّق بـ﴿تَتَفَكَّرُوا۟﴾، أو مستأنَف للتّنبيه على النظرِ في أمر النبيِّ عليه السلام.

وبين يدي الشيء: قُدَّامُه.

---

(١) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل، وهو ثابت في (ح).

(٢) كذا في الأصل وسائر النسخ، ولم يظهر لي وجه معناه، ولعل اللفظة تصحّفت من: (انفرادك)، والله أعلم.

(٣) كذا في الأصل وسائر النسخ، والأولى في العبارة أن تكون: (وقوله سبحانه: ﴿أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾)، لأن المصدر المؤوَّل من (أن) وما دخلت عليه هو الذي في محل الجر على البدل أو البيان، أو في محل رفع بتقدير (هو)، أو في محل نصب بتقدير (أعني).

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾﴾

أيْ: أيّ شيءٍ سألتكم أجرًا على تبليغ الرسالة فهو لكم، أي: لا أسألُكم أجرًا، كما تقول لصاحبك: أيُّ شيء وصلني منك فخُذه، وما آخذ منه شيئًا، قال في "الأنوار": (هو نفي السؤال، فإنه جعل التنبُّؤَ مستلزمًا لأحد أمرين: إمّا الجنون، وإمّا توقُّع نفعٍ عليه؛ لأنه إما أن يكون لغرضٍ أو غيره، وأيًّا ما كان يلزَم أحدُهما، ثم نفَى كلًّا منهما) [1]. وفيه غموضٌ؛ لأنه أحدُ لازم هذا الكلام، لا أنّه مصرَّحٌ به.

أو: أريد أجرًا هو لَكم في الحقيقةِ، نحو: ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣]؛ لأن القرابة تشمَلهم جميعًا، و﴿مَا﴾ تكون موصولة على هذا، لا نافية، ومن قال: هذه ناسِخة لها فلأنّه حمل على إرادة أن يحبُّوه لقرابتِه فيهم [2]؛ ولهذا قالوا: محمّدٌ يحبُّنا على حبِّ قرابته ويشتم آلهتنا! ولا منافاةَ بينهما ليتَّجه النسخ؛ لأنَّ القصدَ بالمودة للقرابة أن يؤمِنوا به، فيرجع فائدتُها إليهم، فالأجر لهم في الحقيقةِ.

و﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾ تحقيقٌ للتبرُّؤ عن الأجرِ، وكذلك كونه سبحانه شهيدًا، إذ المعنى أنه سبحانه مطَّلِع على أني لا أريدُ منكم أجرًا، وأنَّ نيَّتي خالصةٌ له.

وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي﴾ إلى آخِره، معناه: أنه سبحانه يلقي الحقَّ على من يختارُ من عبادِه، أو يقذفُه على الباطل فيبطِله، أو يرمِي به إلى أقطار الآفاق، فقيل: هو وعدٌ بإظهار الإسلام.

ولقائلٍ أن يقول: هذا أيضًا تحقيقٌ لعدم طلَب الأجر، فإنَّ مِن أعظم ما يُلقيه على خالصةِ العباد مِن الأنبياء أن لا يَسألوا الأجرَ على تبليغِ الرسالة، ولا يُنافيه إرادةُ الأعمّ، ويؤيده ﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾، فإنَّ النيَّة الخالصةَ من جملةِ الغيوبِ، أو ردٌّ لاستبعادِهم تخصيصَ

(١) أنوار التنزيل (ص٥٧٣).

(٢) في الأصل: (لقرابتهم فيه)، والمثبت من (ح).

واحدٍ من بينهم بإنزالِ الذِّكر عليه، أو يُراد بقذف الحقِّ برهانُ التوحيد، وبكونِه علَّامَ الغيوب صحَّةُ الحشر، فإنها وإن كانت ممكِنة بالبرهان لكنَّه لا يُعلَم وقوعُه إلا بإخباره سبحانه.

ويقرأ: ﴿الغِيُوبِ﴾ بالكسر[1] كالبيوت، وبالفتح[2] كالصَّبور على أنه مبالغة الغائب، وبنصب ﴿عَلَّامَ﴾[3] على أنه صفة ﴿رَبِّي﴾، أو بتقدير أعني، وعلى المشهورة محمولة على محلِّ (إنّ) واسمها، أو بدلٌ من الضمير في ﴿يَقْذِفُ﴾، أو خبرٌ آخر[4]، أو خبر محذوف أي: هو.

﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَـٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾﴾

الحقُّ إمَّا القرآن، أو الإسلام، أو السّيف، ويحتمل الأعمّ، والباطل المقابِل له، وقيل: إبليسُ، وقيل: الشركُ أو الأصنام، نحو: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ﴾ [الإسراء: ٨١]، وقيل: مثَلٌ في الهلاك؛ لأنَّ الحيَّ إما أن يُبدِئ شيئًا أو يُعيدَه على إرادةِ إبليس، أي: ما ينشئ خلقًا ولا يعيد، وعن الحسن: (لا ينفع أهلَه في الدارين)[5].

(١) قرأ بكسر الغين حمزة وأبو بكر، وقرأ الباقون بضمها. ينظر: النشر (٢/٢٢٦).

(٢) عن عيسى الكوفة. ينظر: شواذ القراءات للكرماني (ص٣٩٣).

(٣) عن عيسى الكوفة وابن أبي عبلة. ينظر: شواذ ابن خالويه (ص ١٢٣)، شواذ القراءات للكرماني (ص٣٩٣).

(٤) في الأصل: (اجر)، وهو تصحيف، والتصويب من (ح).

(٥) لم أقف عليه.

والجمهور على أن ﴿مَا﴾ للنفي، وعن الزجاج[1] أنه استفهام[2]، أيْ: أيَّ شيء يبدئ إبليس، أو مطلق الشيطان؟ لأنه المتصدِّي للباطل، أو الهالك مِن باد[3] إذا هلك.

وفي الجملة يتضمَّن الإنكار، روي أنَّ النبي ﷺ دخل مكة وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنمًا، فجعل يطعنها بعود ويقول: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الإسراء: ٨١][4]، فيناسب إرادة مجيء الإسلام وزوال الشرك.

وفي الآية دفعُ وهمِ اعتبارِ الباطل، فإنَّ المعنى ظهورُ عدمِ اعتبارِه.

ومعنى ﴿ضَلَلْتُ﴾ أي: عن الحق، وقرئ بفتح العين وكسرها [5]، وضلِلت أضَلُّ بكسرها مع فتحها، والمعنى أنَّ ضلالي يرجع إلى نفسي باعتبار وبالِه، والتقابُل بينه وبين قسيمه حاصِل؛ لأنَّ كلَّ ما هو ضارٌّ لها فهو بسبَبها؛ لأنها الأمارةُ بالسوء، وما لها فبِهداية الله، فهو في المعنى مثل ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾ الآية [فصلت: ٤٦، الجاثية: ١٥].

فإن قيل: كيف يختصُّ ضلالها بها وهو يتعدَّى إلى كلِّ من اتَّبعه من الأمَّة؟! [٧٣٨/أ]

قلنا: المراد [أنه] [6] إن حصل لها ضلالٌ فلا يظهَر للدَّعوة أثرٌ، ولا يتَّبعه أحدٌ، فيختصُّ[1] الضلال هذا، وأنّ عليه إثمه وإثم من اتَّبعه.

---

(١) هو: إبراهيم بن السّريّ بن سهل أبو إسحاق الزّجاج ، كان من أهل الفضل والدّين، وله من التصانيف: «معاني القرآن»، «الاشتقاق»، «خلق الإنسان» «فعلت وأفعلت»، «مختصر النحو»، «خلق الفرس»، «شرح أبيات سيبويه»، وغير ذلك، مات ببغداد في جمادى الآخرة سنة إحدى عشرة وثلاثمائة، وسئل عن سنه عند الوفاة فعقد سبعين. انظر: طبقات المفسرين للداوودي ٩/١.

(٢) ينظر: معاني القرآن وإعرابه (٢٥٨/٤).

(٣) في الأصل: (ساط)، وهو تصحيف، والتصويب من (ح).

(٤) أخرجه البخاري (٢٣٤٦)، ومسلم (١٧٨١)، من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ.

(٥) قراءة العامة بفتح اللام، وقرأ طلحة ويحيى بن وثاب بكسرها. ينظر: شواذ ابن خالويه (ص ١٢٣)، شواذ القراءات للكرماني (ص٣٩٣).

(٦) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل، وهو ثابت في (ح).

وكونه سبحانه سميعًا قريبًا منه وعيدُ الضالِّ، ووعدُ المهتدِي، ولعلَّ تخصيصَ السميعِ دون البصيرِ لأنه ممَّا يُقال ويُسمع، لاسيَّما المتعلِّقُ بالدعوة، لا أنَّه يُرى.

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾ ﴾

أي: لو رأيتَ فزعَ الكفار؛ إمَّا عند الموت أو البعث أو بينهما أو يومَ بدر، لرأيتَ أمرًا هائلًا، و﴿ لَوْ ﴾ و﴿ إِذْ ﴾ وما بعدهما وإن كانت للمضي فالمراد المستقبَل؛ لأنَّ وقوعَ ذلك متأخِّر، وحينئذٍ لا مناصَ لهم.

والمكانُ القريبُ: مِن تحت أقدامِهم، أو مِن ظهرِ الأرض، أو أُخرِجوا منها، أو ببَدر، وهو مثَلٌ لسهولةِ الأخذ والتَّعذيب، وما قيل: إنَّ ذلك في ثمانين ألفًا يَعبُرون الكعبةَ يُخسَف بهم في البيداءِ، فالظاهر أنَّ ذلك في عسكرِ السُّفيانيِّ [٢]؛ لما روي عن النبي ﷺ: ((**إنه يكونُ فتنةٌ بين المشرق والمغرب، إذ خَرج عليهم السفيانيُّ، فنزل دمشقَ** [٣] **جيشًا إلى المشرقِ، وآخَر**

=

(١) في (ح): (فيخص).

(٢) لا يصح في ذكر السفياني حديث مرفوع ولا موقوف، وأمثل ما يروى ما أخرجه الحاكم في المستدرك ٤/٥٦٥، عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((يخرج رجل يقال له : السفياني في عمق دمشق، وعامة من يتبعه من كلب، فيقتل حتى يبقر بطون النساء، ويقتل الصبيان، فتجمع لهم قيس فيقتلها حتى لا يمنع ذنب تلعة ، ويخرج رجل من أهل بيتي في الحرة ، فيبلغ السفياني فيبعث إليه جندًا من جنده فيهزمهم ، فيسير إليه السفياني بمن معه ، حتى إذا صار ببيداء من الأرض خسف بهم فلا ينجو منهم إلا المخبر عنهم)). قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد على شرط الشيخين ولم يخرجاه . وحكم الشيخ الألباني بنكارته، وتعقب تصحيح الحاكم بقوله: " فيه نظر من ناحيتين: الأولى: أن ابن أبي سمينة لم يخرج له مسلم. والأخرى: عنعنة الوليد بن مسلم، فإنه كان يدلس تدليس التسوية". سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة ١٤/٥١-٥٢).

(٣) كذا في الأص وسائر النسخ، وسقط منها في هذا الموضع قوله: (فيبعث جيشين)، كما في مصادر =

إلى المدينة، حتى ينزلوا بأرضِ بابل في المدينةِ الملعونة والبقعةِ الخبيثة، فيقتلون [1] أكثَر من ثلاثة آلاف، ويبقرون بها أكثر من مائة ألف امرأة، ويقتلون ثلاثمائة كبس من بني العباس، ثم ينحدِرون إلى الكوفة، فيخربون ما حولها، ثم يخرجون إلى الشّام، فتخرجُ راية هدى من الكوفةِ، على ليلتين، فيقتلونهم لا يفلِت منهم مخبرٌ، ويستنقذون ما في أيديهم من السبيِ والغنائم، ويحلُّ جيشه الثاني بالمدينة، فينهبونها ثلاثة أيام ولياليها، ثم يخرجون إلى مكة، حتى إذا كانوا بالبيداء بعث[2] الله جبريل ويقول: يا جبريل، اذهب فأبدهم، فيضربها برجله ضربة يخسف الله بهم، وهو الأخذ من مكان قريب))[3].

وقالوا عند الأهوال: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾، أي: بالله، أو بمحمد ﷺ.

والتناوش: تناولٌ سهلٌ لشيءٍ قريبٍ، تقول: ناشه ينوشه ويناوِشه القوم، والتنأوش بالهمز التناول من بُعد، من قولهم: نأشت إذا أبطأت وتأخرت، وقال سيبويه [4]: (هو قلب الواو المضمومة همزة)[5]، وقرئ بها[6]، قال رؤبة[1]:

=

التخريج.

(١) في الأصل: (فيقتتلون)، وهو تصحيف، والتصويب من (ح).

(٢) في الأصل: (وبعث)، والمثبت من (ح).

(٣) رواه الطبري في تفسيره (١٩/٣١٠-٣١١) من حديث حذيفة ﷺ، وقال ابن كثير في تفسيره (٦/٥٢٨) والألباني في السلسلة الضعيفة (٦٥٥٢): "حديث موضوع".

(٤) هو: إمام النحو حجة العرب، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر الفارسي ثم البصري ، وقد طلب الفقه والحديث مدة، ثم أقبل على العربية فبرع وساد أهل العصر ، وألف فيها كتابه الكبير الذي لا يدرك شأوه فيه، قيل: عاش اثنتين وثلاثين سنة ، وقيل: نحو الأربعين، قيل: مات سنة ثمانين ومئة ، وهو أصح، وقيل: سنة ثمان وثمانين ومئة. ينظر: سير أعلام النبلاء ٨/٣٥١.

(٥) ينظر: التبيان في تفسير غريب القرآن (ص٣٤٥).

(٦) الهمز هو قراءة أبي عمرو وحمزة والكسائي وخلف. ينظر: المبسوط في القراءات العشر (ص٣٦٥).

أقحمني جار أبي الجاموش إليك نأش القدر النؤوش [٢]

وإلى معنى التأخير وهو التناول من بُعدٍ أشار:

تمنَّى نئيشًا أن يكون أطاعني وقد حدثت بعد الأمور أمور [٣]

أي: أطاعني أخيرًا.

وهو تمثيل لطلب ما لا يُدرَك، أي: لا ينفَعهم إيمانهم لأنه قد ارتفع التكليفُ، وصار الغيب مشاهَدًا؛ لأنَّ ما يكون معلومًا بالضرورة لم يحتج إلى تكليفِ الإيمان به، وقد شُبِّه في الاستحالة بمن يريد أن يتناول الشيء من علوّه تناولَه من ذراع، وإنما حسُن عطف ﴿يَقْذِفُونَ﴾ على ﴿قَدْ كَفَرُوا﴾ لإرادة حكاية الحال الماضية، أي: كانوا يتكلَّمون بالغيب، ويأتون به من مكان بعيد.

وفُسِّر الغيب بقولهم في النبيِّ ﷺ بنحو ساحِر وكذّاب، وقيل: قولهم: لا بَعثَ ولا حسابَ، أو طعنهم في القرآن؛ لأنه الأمر الخفي، والغيب الشيء الغائب، ولأنهم لم يشاهدوا شيئًا منه فقد أتوا هذا الغيب من جهة بعيدة من حاله ﷺ، فإنّ نحوَ الكذب والسحر من أبعد الأشياء من صفاته ﷺ.

ويقرأ: ﴿يُقْذَفُونَ﴾ ببناء المفعول [١] على [أن] [٢] الشيطانَ يلقي إليهم ويلقِّنهم ذلك، وعلى هذا إن علّق ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ فالمعنى تمثيل طلَبهم ما أهملوه من الإيمان في الدنيا بقولهم:

=

(١) هو: رؤبة بن عبد الله العجاج بن رؤبة التميمي السعدي أبو الجحّاف ، راجز من الفصحاء المشهورين، مات في البادية سنة ١٤٥هـ وقد أسنّ. ينظر: الشعر والشعراء (٤٩٥)، سير أعلام النبلاء (١٦٢/٦).

(٢) ذكر هذا البيت أبو عبيدة في مجاز القرآن (١٥١/٢)، ونسبه لرؤبة.

(٣) هذا البيت لنهشل بن حرّي الدارمي. ينظر: جمهرة الأمثال (٢٣٦/١). وقد جاء في الأصل وسائر النسخ: (أتمنى)، وهو تصحيف.

آمنّا في الآخرة، فهو كمن يقذِف شيئًا من مكانٍ بعيدٍ لا يظنُّ لحوقه، وإن جعل الضمير المجرور في ﴿بِهِۦ﴾ للعذابِ الشديدِ كان شديدًا كما سبَق أنهم كانوا يقولون: لا نُعذَّب ونحن أكرمُ على الله أن يعذِّبَنا؛ لقياس الآخرةِ على الدنيا، وهذا أيضًا قذفٌ بالغيب حيث لم يَقُم لهم دليل على تساوي حالِ الدارين.

وما يشتهونَه: أن ينفعَهم الإيمانُ بإنجائهم من النارِ والفوز بالجنة، أو الردّ إلى الدنيا للعمَل الصالح.

وكما حيل بين ذلك وبينهم فُعِل بأشباهِهم من الكفرةِ المماثلين لهم.

ومعنى ﴿مِّن قَبۡلُۚ﴾ أي: حينَ آمنوا إيمانَ اليأس.

والمريب: الموقِع في الرِّيبَة، يقال: أرابه لهذا المعنى، [ولصيرورته[٣] ذا ريبة.

والفرق بين المجاز الأول والثاني أن [٤] منقول من المشكّك، أعني الأعيان التي تصحّ أن تكون مريبةً إلى المعنى] [٥]، والثاني من الشاكّ إلى الشكّ كما يقال: شِعر شاعر وسِحر ساحر.

فإن قيل: فأيُّهما أولى؟ قلنا: الأوّلُ باعتبار أكثريةِ ذلك المجازِ أولى، والثاني باعتبار شدَّة المبالغَةِ.

=

(١) عن مجاهد وأبي حيوة ومحبوب عن أبي عمرو. ينظر: شواذ ابن خالويه (ص ١٢٣)، شواذ القراءات للكرماني (ص٣٩٣).

(٢) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل، وهو ثابت في (ح).

(٣) في (ح، د، ن): (ولصيروته)، فسقط منه حرف الراء الثاني.

(٤) كذا في (ح، د، ن).

(٥) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل، وهو ثابت في (ح، د، ن).